

الكتاب
الشاف
١٤٧



من عمل الشار؟

تأليف: د. أبرار كريم الله
ترجمة وتعليق: د. رشيدة رحيم الصبروتى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

من هم المتتار؟

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرحان
رئيسة مجلة الإدارة

رئيس التحرير

لمنحى المطبعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الدراسات الفنية

علياء أبوشادي

من هم التتار؟

تأليف

د. أ. براد كوكيم الله

ترجمة وتعليق

د. رشيدة رحيم الصباروتى



الهيئة العامة للمكتبات

١٩٩٤

الفهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة المترجمة	٧
مقدمة	١٣
أصول التتار	١٧
اسم التتار بجذوره ومن سمي بهذا الاسم	٢٥
من هم أسلاف الشعب التتاري الحديث	٣١
البولجار على ضفاف أواسط نهر الفولجا	٣٩
من تاريخ أسماء الشعوب	٥١
تسمية التتار واسم البولجار	٥٧
كيف يسمى التتار أنفسهم اليوم ؟	٦٧
ممنوعات حول أسماء الترك والتتار والمسلمين	٧٥
خلاصة القول	١١٥

كلمة المترجمة

كثيرا ما نجد اسم « التتار » يستخدم فى المؤلفات التاريخية والأدبية وعلى صفحات الجرائد اليومية والمجلات مرادفا للهمج وأعداء الحضارة الانسانية ، وهو ظلم فادح لأولئك المسلمين الذين يحملون هذا الاسم الآن . وهذه المواقف المؤسفة تتطلب منى بصفتى متخصصة فى اللغات الشرقية بوجه عام وفى اللغة التركية بوجه خاص ، أن أتدخل بترجمة هذا الكتاب الذى يقوم بتصحيح المفاهيم الخاطئة التى علقتم بأذهان بعض المؤرخين والأدباء تجاه الشعب التتارى الحديث ، وقد يضع ذلك حدا لتلك الأحكام الظالمة التى تصدر ضده بسبب نقص المعلومات حول منطقة تسكنها الشعوب الناطقة بالتركية فى الامبراطورية السوفيتية المنهارة . كما تتطلب منى الأمانة العلمية والواجب الانسانى أن أشرح للقارىء العربى جذور مأساة الشعب التتارى الحديث ، وكيف أصبح اسم « التتار » دخیلا عليه ومنسوبا اليه دون ارادته .

والشعب الذى يطلق عليه اليوم اسم « التتار » يعود بجذوره الى الشعوب التركية التى تجمع فى أسرتها الكبيرة الأتراك والأذربيجان والكازاخ والقرغيز والأیغور والترکمان والقرافلباق والشورنس والياقوت والطوفين والبلكار والقراتشاي والنوغاي وتتار القرم وتتار بولاندا. وتتار نهر الفولجا (البولجار) . ويعيش التتار فى مناطق كثيرة لأنهم أصبحوا متفرقين بعد سقوط امارة قازان ، لذلك يطلق عليهم أسماء وفق المناطق التى يشغلونها مثل : تتار الفولجا وتتار أورال وتتار سيبيريا . وكل هؤلاء التتار ينحدرون من البولجار الذين سجلتهم المصادر العربية باسم « بلغار نهر ايدل » (الفولجا) . وقد اكتسب هؤلاء البولجار اسم « التتار » نتيجة للحملة الدعائية التى وجهتها ضدهم سياسة قياصرة الروس الاستعمارية سنين طويلة . أما تتار القرم وتتار بولاندا وتتار لتفانيا وتتار رومانيا فهم يختلفون عن التتار - البولجار ، فالاستخدام الشامل لاسم « التتار » وتعميمه بالنسبة الى تلك الشعوب لا يمثل الحقيقة . أو الواقع ، بل يؤدى الى خلط الأمور .

وكانت هناك الفترة فى التاريخ حين أطلق اسم « التتار » على

كل شعوب المنطقة التي تقع شرقي موسكو مثل الأذربيجان والكازاخ والقرغيز والأويغور وحتى على الكوريين واليابانيين وشعوب جبال « تبت » .
وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين أطلق الأوروبيون على الروس اسم « التتار » أو « الموسكوفيون » . وأصبح اسم التتار يشمل شعوبا كثيرة ، لكن استخدامه الخاطئ بالنسبة لتلك الشعوب يخالف الواقع . أما التتار الذين يحملون هذا الاسم الآن فقد عرفوا في التاريخ باسم « البولجار » وسجلتهم المصادر العربية باسم البلغار الذين استطاعوا في القرن السابع الميلادي أن يقوموا بتكوين دولة بلغاريا العظمى التي ضمت شواطئ البحر الأسود وحوض نهر الدون وبحيرة أزوف ومناطق القوقاز الشمالية وشبه جزيرة الأناضول . وسقطت هذه الدولة على يد قبائل الخزار وتفككت ، فذهب جزء من البلغار الى حوض نهر الدانوب حيث حكموا ما يقرب من مائتي سنة ، ثم ذابوا بين الشعوب السلافية ، لكنهم احتفظوا باسم البلغار الذي يطلق الآن على دولة بلغاريا الحديثة .
وتوغل جزء آخر من البلغار داخل جبال القوقاز فأصبح معروفا اليوم باسم البلكار والقراتشاي . واتجه جزء من البلغار الى شبه جزيرة الأناضول ومصر ، وبقي جزء منهم في نفس المناطق التي كانوا يشغلونها ، فانضموا الى دولة الخزار (الأذربيجان) ، وبدأ يطلق عليهم منذ ذلك الوقت اسم الخزار ، فذابوا مع مرور الزمن في الشعب الشقيق لهم من حيث اللغة والجذور ، وفقدوا اسمهم الحقيقي . وذهب جزء من البلغار عقب تفكك دولتهم الى شواطئ نهر ايدل (الفولجا حاليا) ، حيث كان يسكنها القبائل الأوغورية — الفينية والقبائل التركية الشقيقة لهم .
وأم يحدث انتقال ذلك الجزء من البلغار الى حوض نهر الفولجا أي حروب أو استخدام القوة لتعمير المنطقة .

وكان ذلك الجزء من البلغار الذي استقر على ضفاف نهر الفولجا ، مرتبطا بعري الصداقة الوثيقة مع العرب والشعوب الاسلامية الأخرى . وتعود جذور هذه العلاقات الى تلك الأزمنة حين كان البلغار يشغلون شواطئ البحر الأسود ونهر الدون والقوقاز . واستطاع البلغار (البولجار) الذين كانت لديهم الخبرة في نظم الحكم ، أن يقوموا خلال فترة تاريخية وجيزة بتكوين دولة لهم في أقصى شرق أوربا ذاع صيتها بين بلاد أوربا وآسيا وأفريقيا ، واتجه التجار والرحالة العرب صوب هذه المنطقة ، وبدأ تأثير الحضارة العربية يزداد قوة بعد اعتناق البولجار الدين الاسلامي في القرن التاسع الميلادي . ومنذ ذلك الحين بدأ البولجار يشجعون شبابهم على السفر الى بغداد والقاهرة والمراكز الاسلامية الأخرى لتعلم الدين الاسلامي . أما الاعلان الرسمي لاعتناق البولجار الاسلام فقد تم في عام ٩٢٢ م بواسطة الخليفة المقتدر الذي أرسل البعثة من

بغداد الى بلاد البولجار . وكان على رأس هذه البعثة ابن فضلان الذى ترك لنا تسجيلات قيمة فى تاريخ البولجار (بلغار نهر ايدل) وحضارتهم وديانتهم .

وكان ابن فضلان ورحالة العرب الآخرون الذين زاروا بلاد البولجار ، يكتبون فى مؤلفاتهم أن لديهم العلماء والأدباء والأطباء ، وأنهم يعرفون الكتابة ، فكانت لهم كتب منسوخة بخط اليد . وتغيرت حروف البولجار عقب اعتناقهم الاسلام الى الحروف العربية . وكان رحالة العرب ومؤرخوهم يشيرون فى مؤلفاتهم الى وجود المدارس فى المدن البولجارية والى انتشار فن الكتابة . وحين توثقت العلاقات بين البولجار والعرب بدأ البولجار يهتمون بالأدب العربى والفكر الإسلامى ، فأرسلت الى بلادهم كتب عربية كثيرة ، وأصبحت دولتهم احدى قلاع الاسلام فى أقصى المناطق الشمالية . وكانت دولة البولجار تمتاز بالمستوى الحضارى الراقى ، حيث شيدت الجوامع الشامخة والخانات والبيوت التى كانت تستخدم فيها التدفئة الهوائية . وكانت تمتد عبر المدن مواسير المياه . وأصبحت بلاد البولجار من أهم المراكز التجارية فى منطقة شرق أوربا ، مما أدى الى غيرة دولة روسيا الكييفية والموسكوفية التى أخذت تشن الحملات الوحشية على بلاد البولجار لنهب وسلب خيراتها وتدمير مدنها ومنشأتها الحضارية .

واستطاع البولجار أثناء الغزو المغولى أن ينتصروا فى البداية على جيوش الأعداء ، لكنهم لم يصمدوا كثيرا ، فسقطت دولتهم ، وأصبحت تحت سيطرة الامبراطورية الذهبية . وعلى الرغم من أن دولة البولجار قد تعرضت للخراب والتدمير ، الا أنها استطاعت أن تنهض من جديد لمعالجة أوضاعها ، حتى أصبحت من أهم المراكز التجارية والثقافية فى منطقة الشرق . وحين أصاب الضعف أوصال الامبراطورية الذهبية تحركت روسيا لتحقيق أطماعها التاريخية فى الاستئثار بدولة البولجار ، حتى سقطت عاصمة البولجار عقب الغزو الروسى تحت قيادة « فيودور بوستري » (Feodor Pestriy) الذى أمر بحرق وتدمير العاصمة ، فنقل البولجار عاصمتهم الجديدة « قازان » على بعد ما يقرب من ١٠٠ كم شمالى العاصمة القديمة ، ومنذ ذلك الحين أطلق على دولة البولجار اسم « امارة قازان » . غير أن حملات الروس الوحشية لم تتوقف على أراضى قازان ، حتى سقطت قازان بدورها فى عام ١٤٣١ م . وفقدت استقلالها .

ومنذ ذلك الحين بدأت أسوأ فترة فى حياة الشعب البولجارى الذى تعرض ثلث سكانه للإبادة الجماعية . وفقدت دولة البولجار كيائها ، ووقع جزء من أبنائه فى الأسر ، وفر جزء منهم الى جبال أورال وسيبيريا . وأحرقت كل المساجد ، وأصدرت السلطات الروسية قانونا بمنع إقامة

البولجار في عاصمة قازان وضواحيها على بعد 20 كم . وقد تعرض جزء من البولجار للتنصير قهرا ، وهم الذين أصبحوا معروفين باسم « كراشين » (أى النصارى) . وكان الروس يطبقون سياسة تنصير البولجار تطبيقا وحشيا واستمرت هذه السياسة علنا حتى عام ١٩١٧ م . وقد أدى تدمير امارة قازان الى تدمير كل المساجد والمؤسسات البولجارية الدينية والثقافية . وتمت ابادة التراث المنسوخ واعداد ما يقرب من ألف شخص من رجال الدين وعلمائه فاستطاع الروس بذلك فصل رأس الشعب عن جسده وقتله معنويا . وكانت لوحات مقابر المسلمين التى نقشت عليها الآيات القرآنية ، قد اتخذت حجر الأساس لبناء الكنائس ورصف الطرق ، وأخرجت عظام أمراء قازان من مقابرهم ، ثم أحرقت وأطلقت من المدافع كى لا يبقى شئ من آثارها . وهكذا نجد كل ألوان الهمجية بأنواعها تتضاءل أمام همجية الروس ووحشيتهم ، مما أشار اليه المؤرخون الروس أنفسهم . لكن الشعب لم يستسلم ، ولم ينحن أمام قسوة الروس ، واستمر سرا فى تعليم أبنائه القراءة والكتابة وأسس الديانة الإسلامية . وفى الفترات التاريخية العصيبة التى كانت تمر بها روسيا ، عاد الشعب الى بناء المساجد والمدارس الإسلامية ، لكن قياصرة الروس لم يتركوا فرصة النهوض للشعب ، اذ كانوا يرسلون فيالق من جيوشهم لحرق المساجد ونهب وتدمير المنشآت الثقافية وهتك أعراض النساء . وبعد ثورة « بوجاتشوف » التى اشترك فيها التتار (البولجار) ، اضطرت الامبراطورة « كاترين الثانية » أن توافق على مؤتمر للمسلمين ، ومنذ ذلك الحين لم يمنع بناء المساجد .

ومنذ القرن السادس عشر الميلادى بدأت السلطات الروسية ورجال الكنيسة والمبشرون يسعون الى تقديم البولجار أمام الراى العام على أنهم بقايا الجيوش المغولية أو بقايا الامبراطورية الذهبية ، فأطلقوا على البولجار اسم « التتار » بسبب عداوتهم للمدين الاسلامى ، ومن هنا بدأت هذه الفكرة تشرب من مؤلفات المؤرخين الروس الى المؤلفات الأدبية حتى تشرب بها الأدب الروسى الذى حظى بالشهرة العالمية واهتمام الغرب . وكان البولجار الذين غير الروس اسمهم الحقيقى الى التتار ، يملكون فى بداية القرن العشرين أكثر من ثلاثة عشر ألف مسجد ونفس عدد المدارس ، بالإضافة الى المراكز العلمية والدينية . وكان التتار أول من بدأ استخدام طباعة الكتب بين الشعوب الناطقة بالتركية . وقد احتل القرآن الكريم مكانة خاصة فى طبع ونشر الكتب التتارية . وكانت دور النشر تقوم باصدار مؤلفات علماء الشرق مثل الغزالى والكندى والروداكى وآخرين ، وظلت الحروف العربية تستخدم حتى قيام الثورة البولشيفية ، وكانت المكتبة التتارية تحتوى على قدر كبير من المؤلفات فى العلوم الإسلامية باللغة العربية . ولعب التتار دورا هاما فى تقريب بعض الشعوب الناطقة

بالتركية الى الاسلام مثل الباشكير والكازاخ والقرغيز والقراقلباق . وقد أثار تأثير التتار على الشعوب الناطقة بالتركية وخاصة نشاطهم في نشر الثقافة الاسلامية ، قلق السلطات الروسية ، فأصبحت سياستهم أشد قسوة في اضطهاد التتار وتدمير مؤسساتهم التعليمية . ومن هنا بدأت حملة لتلفيق تهمة جديدة للتتار بنشر الايديولوجية « بان - اسلامية » (الجامعة الاسلامية) و « بان - تركية » (الجامعة التركية) .

أما حين أمسك الشيوعيون بزمام الحكم في الامبراطورية السوفيتية بدأت موجة جديدة لآبادة التتار جسديا وروحيا ومعنويا ، ولكنها كانت هذه المرة أشد قسوة ومهارة ودهاء . وتم اعداد التخطيط الاستراتيجي لطرد التتار من ديارهم ، وبدأ تنفيذ هذه الخطة بطرد تار القرم وتشتيتهم بين شعوب الاتحاد السوفيتي بهدف تذويبهم . أما تار نهر الفولجا (البولجار) فقد أنقذتهم من هذه الآبادة الجماعية وفاة الدكتور ستالين ، ولم تجرؤ السلطات الروسية في موسكو على تنفيذ هذه الخطة بعد وفاة الطاغية في عام ١٩٥٣ م .

وما زال التتار متشبثين باستقلالهم ، فهم يناضلون من أجل الحرية رغم ظروفهم الصعبة وتعرضهم للملاحقة المستمرة من جانب السلطات الروسية . وعلى الرغم من تحركات موسكو الخفية ومكايد الديمقراطيين الروس ومؤامراتهم ، أعلن التتار في ٣٠ أغسطس عام ١٩٩٠ م . استقلالهم الذي أكد عليه استفتاء الرأي العام في ٢١ ديسمبر عام ١٩٩٢ م . ويمر الشعب التتاري بظروف اقتصادية وسياسية صعبة ، ومع ذلك بدأ نريميم المساجد ، وادخال مادة الدين الاسلامي في البرامج التعليمية ، وطباعة الكتب الدينية . وهناك صراع مرير من أجل فتح المدارس التتارية بلغتهم القومية ، وادخال لغة التتار في التعليم العالي ، واعداد الكادر القومي في كافة المجالات العلمية والتقنية والفنية . ويقول مؤلف هذا الكتاب : « لدى ثقة تامة في امكانيات الشعب التتاري الذي يملك تاريخا عريقا سجل لنا البطولات في كفاحه ونضاله من أجل الحرية والاستقلال . ذلك الشعب الذي ترك لنا آثارا أدبية عظيمة ، يجب أن ينتصر ويأخذ مكانته اسوة بكافة شعوب العالم . وأتمنى أن كتابي هذا سوف يساعد القارئ على التخلص من تلك الافتراءات التي أتى بها أعداء شعبي » . أما مؤلف هذا الكتاب فيعيش ما يقرب من ثلاثين عاما تحت رقابة المخابرات الروسية المشددة بسبب آرائه وأفكاره ، وهو يحاول أن يعرض تاريخ شعبه عرضا علميا واقعيا ، وأن يدافع عن حرية واستقلال شعبه الذي أصبح يعامل كأقلية قومية في بلاده التي يعيش فيها قرونا طويلة ، وإن شئنا الدقة نستطيع أن نقول انهم يعدون مواطنين من الدرجة الثانية . وقد تعرض الكاتب لسلسلة الاضطهادات بأمر من الرئيس

خروشوف ، وتم رفته من وظيفة مدرس بجامعة قازان . وعلى الرغم من ذلك استطاع الكاتب بأبحاثه وعمله الدعوب أن يرفع مكانته وينال تقديرا في الأوساط العلمية ، حتى فاز بلقب « الأستاذ الاكاديمى » ، وأصبح عضوا بأكاديمية العلوم فى جمهورية تنارستان (روسيا الاتحادية) . وقد سجل اسمه فى بعض الموسوعات العالمية بالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ، كما أصبح الكاتب عضوا باللجنة العليا لمجلس الفرسان العالمى بمدينة سيدنى (استراليا) وفاز بلقب « ماركيز طوران » (Markiz of Turan)

وبعد ، فلعلى أكون قد صححت بترجمة هذا الكتاب بعض المفاهيم الخاطئة التى علقت بأذهان الأدباء ، والمؤرخين تجاه الشعب التتارى الحديث . وأرجو أن تكون هذه الترجمة قد استطاعت أن تكشف للقارىء العربى بعض جوانب مأساة ذلك الشعب المسلم الذى يملك تراثا عميقا . وأسأل الله أن يلهمنى السداد فى الفكر والعمل وهو حسبى ونعم الوكيل .

د . وشيدة رحيم / ٢١ فبراير ١٩٩٣ م
اسكندرية

« ان تفتيت الذرة اهلون احيانا من القضاء على الخرافات »
اينشتاين

مقدمة

يطلق على الشعوب أسماء مختلفة مثل « العرب » و « الاغريق » و « الفرس » لكن من أطلق هذه الأسماء ؟ وما الذى تحمله فى داخلها من المعانى ؟ ومن أين أتت هذه التسميات ؟ ولماذا يعرف شعب واحد بأسماء مختلفة ؟ ثم لماذا يطلق أحيانا اسم واحد على شعوب مختلفة ؟ وما تفسير ظاهرة تغيير أسماء الشعوب ؟

انها تساؤلات مهمة والاجابة على سؤال مثل : « لماذا لم يطلق على شعب معين الا هذا الاسم ؟ » ليست بسيطة بل مستحيلة أحيانا ، لأن هناك مناقشات علمية استمرت قرونا حول تحديد أسماء بعض الشعوب . وتتعلق تسمية أى شعب بتاريخه وماضيه ، لذلك دراسة جذور التسمية لها أهمية كبرى فى تحديد اسم الشعب وأصوله . والاسم يجب أن يحتوى على مواصفات معينة للشعب ، لكن ليس كل تسمية تمثل اسما حقيقيا له ، مما يؤدي الى تفسيرات خاطئة لتاريخه وتشويه أصوله .

ويعود اسم التتار فى رأينا الى تسميات أكثر تعقيدا ، لها تاريخ صعب وعتيق . وما أكثر الشعوب التى سميّت بالتتار ! وما أبشع السمات والصفات التى علقت بكل من حمل هذا الاسم من بداية العصور الوسطى حتى يومنا الحاضر سواء أكان فى الشرق أم الغرب ! لقد رأينا فى الحرب العالمية الثانية ذلك الرعب الذى كان ينتاب سكان بلاد أوروبا الشرقية كلما ذكر اسم التتار . وفى أيامنا هذه تستطيع أن تشاهد ما يشبه ذلك ، فقد عاد زميل لنا من رحلة سياحية الى بولندا وتشيكوسلوفاكيا وحكى فى حيرة شديدة كيف التف حوله الناس عندما سمعوا أنه تتارى الأصل ، فأخذوا يستعرضون له معلوماتهم « الرائعة » تجاه الشعب التتارى ، قصصهم فرسانا ذوى عيون ضيقة مرتفعة اللحاظ ، ينطلقون فوق جيادهم ملوحين بسيفوفهم والخناجر فى أفواههم . ولا يزال التتار حتى

الآن في مفهوم الأوربيين وحوشاً وهمجاً قاموا بغزو أراضيهم في القرن الثامن . لكن هذا الاعتقاد لا يقتصر على بلاد أوربا فحسب ، بل نجد « بيلوزورسكايا » ، وهي باحثة في التاريخ المعاصر ، تقول : « أسأل كل من تعرفه عن أضول التتار الذين يسكنون ضفاف نهر الغولجا ! ستجد تسعين في المائة يذكرونك بالغزو التتاري - المغولي » (*) .

والكاتبة لها الحق فيما تدعيه ، فقد سمعنا نفس الشيء من الناس في كافة أرجاء بلادنا أثناء قيامنا برحلات مختلفة ، ومن بينهم عدد لا بأس به من المتقنين : كالأطباء والمهندسين والكتاب والمدرسين والعلماء وغيرهم من الذين يحتلون مراكز قيادية في الدولة . وكلهم يؤكّدون بثقة تامة متخذين ما يردده كبار الكتاب دليلاً لهم ، أن تتار اليوم ليسوا سوى سلالة الغزاة المغول ، وكل المحاولات لتغيير اعتقادهم باءت بالفشل ، لأن زعزعة الثقة في المكتوب أمر صعب للغاية . ولا شك في أنهم ليسوا مذنبين فيما يدعون ، إذ أنهم تعلموا هذا من المدارس والكليات . بالإضافة الى ما يوجد في المأثور الشعبي والأدب الروسي الذي يؤكد اعتقادهم .

ونجد في كتب تاريخ الاتحاد السوفيتي ، سواء أكانت المدرسية أم الجامعية ، من ينسب التتار الى المغول ، بل يخلط بينهم . وللأسف الشديد نجد ذلك المفهوم في أبحاث بعض المؤرخين ! أضف الى ذلك الأبحاث التاريخية التي نشرت ولها شعبية لدى القراء . ويشير المؤرخ السوفيتي « جيمادي » الى تلك الظاهرة قائلاً : « لا يزال المفهوم الشمولي للتتار باقياً في أدبنا التاريخي ، مع أن التتار بهذا المفهوم ليس لهم وجود الآن . وكثيراً ما نرى في الكتب الأدبية ألفاظاً وغباراً مثل « التتار » و « التتار الغزاة » و « جحافل التتار » وما يشبه ذلك . والقارئ بدوره يعزوهم الى التتار الذين نراهم اليوم ، وهو لا يدرك أن الحديث لا يدور حول المغول والتتار ، وإنما حول جيوش جنكيز خان (١) وباطي (٢) (*) ثم يشير الكاتب الى ضرورة وضع حد للاستخدام الخاطئ لأسم التتار ، « لأن ذلك يشوه الحقائق التاريخية ويخالف وقائع الأمور » .

وبطبيعة الحال فإن مثل هذا التصور عن التتار الذي تؤيده بعض الأبحاث فتغذيه ، يؤدي الى انزال الشعب التتاري الذي نراه اليوم ، في موضع خاطئ ، وبإلى بغرس الكراهية لدى الشعوب تجاههم ، وفي الوقت نفسه يولد لدى الشعب التتاري الشعور بالاستياء ، مما يخالف

Belozerskaya, O. : Voljskiyo tatari. Znaniye sila. 1970. 7. (*)
ps. 34-35.

Gimadi, H. : Voprosi istorii. 1954, 8 s. 116.

(**)

مبدأ التآخي والتفاهم بين الشعوب التي تشارك جنبا الى جنب فى بناء المجتمع الجديد ، لأن تشويه تاريخ الشعوب وأصولهم أو تشويه عاداتهم وتقاليدهم أمر مرفوض تماما .

والهدف من هذا البحث هو تأمل الظروف والأسباب التي أدت الى ظهور مفاهيم وتصورات خاطئة تجاه اسم التتار ، والى الحاق الشعب التتارى بصورة مستمرة الى المغول . وبذلك سوف يساعد البحث على التغلب على تلك المفاهيم الخاطئة وغير العلمية ، مما يكون له آثار طيبة فى التفاهم بين الشعوب وتقربهم من أجل مستقبل أفضل للانسانية .

لقد أصبح اليوم تاريخ أصول التتار أمرا معقدا للغساية ، وكانما حدث ذلك بفعل فاعل ، وتراكمت فى كتب التاريخ استخدامات خاطئة لاسم التتار الذى أطلق على شعوب كثيرة فى الشرق ، لذلك قام المؤلف بمراجعة دقيقة لكل ما نشر عن التتار ، فوجد أن عددا كبيرا منه ليس له أدنى صلة بموضوع دراسته . ومن ناحية أخرى احتاجت دراسة صلة « البولجار » (٣) (وهم تتار اليوم) بشعوب آسيا وأوربا ضرورة التعرف الكامل على الأبحاث التي تعود الى تاريخ شعوب كانت تسكن ومازالت تسكن حتى الآن منطقة تمتد من نهر « ايرتيش » حتى نهر الدانوب . وكان المؤلف حريصا أشد الحرص فى كل رحلاته سواء أكانت علمية أم ترفيهية ، أن يلتقى بممثلى الجيل القديم . وقد توصل الكاتب فى النهاية الى أن الشعب الذى يحمل اليوم اسم التتار يعود بجذوره الى البولجار - الأتراك . وكثيرا ما وجد المؤلف هؤلاء الناس يعبرون عن أسفهم واستيائهم تجاه عدم التوافق والتجانس بين أصل الشعب وتسميته الحديثة .

ان الأفكار والاحتمالات التي استنتجت من الأبحاث استغرق عملها سنين طويلة ، قد وجدت لها صدى عميقا فى مناقشات علمية مع الزملاء فى العمل ومع علماء التخصصات الأخرى . وكثيرا ما كان المؤلف يستشير أصحاب التخصصات المختلفة أثناء قيامه بالبحث ، لذلك فان الكاتب يعبر عن جزيل الشكر للمؤرخ الأستاذ الدكتور جوميلوف الذى قدم ملاحظاته القيمة التي ساعدت على التغلب على ما غاب عن النظر وعلى تصحيح بعض الأخطاء ، كما يقدم الكاتب جزيل شكره لكل من شاركه فى البحث من الكتاب وأساتذة الأدب والتاريخ والفلسفة والحقوق بملاحظاتهم ونصائحهم المفيدة .

أصول التتار

ان اسم الشعب وهو رمز له - ان صح هذا التعبير - يحتوى على العوامل الأيديولوجية (٤) ، ومن ثم فان تحديد اسمه الحقيقي يعد من أهم القضايا المعاصرة . أما الاسم الدخيل على الشعب أو المنسوب اليه دون ارادته فيؤدى الى تشويه الحقائق التاريخية + ونجد هذا بوضوح فى تاريخ اسم « التتار » ، اذ ان الخلط بين الشعب الذى يحمل هذا الاسم اليوم ، وبين التتار - المغول بدأ يعطى ثمارا مريرة ، وأدى الى محاولات بعض الكتاب والمؤرخين لعرض تاريخ الامبراطورية الذهبية فى صور مثالية . وفى قرار اجتماع اللجنة العلمية الذى عقد فى ٩ أغسطس عام ١٩٤٤ ، تم بيان الأخطاء الفادحة فى تاريخ تترستان (٥) ، فأكدت اللجنة على ضرورة وضع الأسس العلمية لتحديد أصول الشعب التتارى ، وتجنب هذه الأخطاء . ولم يمض وقت طويل حتى فوجئ المؤرخون عند اعدادهم لتاريخ التتار بعدد من المشاكل التى جعلت تقسيم التاريخ الحقيقى لجمهورية تترستان أمرا مستحيلا دون حلها أو عرضها عرضا منطقيا . ومن هنا أصبحت قضية تحديد أصول التتار من أكثر القضايا حيوية .

وقد انقسم العلماء فى تحديد أصول التتار الى فرق ثلاث : الفريق الأول ينسب تتر مدينة قازان الى هؤلاء المغول - التتار الذين قاموا بغزو روسيا وبلاد أوروبا الشرقية فى القرن الثالث عشر . ويذهب الفريق الثانى الى أن التتار الذين نراهم اليوم ، ليسوا سوى خليط من اقبائل التركية فى وسط نهر الفولجا وغزاة المغول . وأخيرا يؤكد الفريق الثالث على أن تتر قازان هم سلالة البولجار الذين اكتسبوا من المغول مجرد اسم « التتار » (*) .

لقد أصبحت قضية تحديد جذور التتار من أهم قضايا الدولة ، والدليل على هذا عقد المؤتمر العلمى فى ٢٥ - ٢٦ أبريل من عام ١٩٤٦

Proishozhdenie Kazanskikh tatar, Kazan, 1948 s. 3.

(*)

بمدينة موسكو الذى قامت بإعداده أقسام التاريخ والفلسفة بأكاديمية العلوم ومعهد اللغة والأدب والتاريخ بجامعة قازان ، وهذه الفترة من أصعب الفترات التى كانت تمر بها الدولة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية من أجل اصلاح الاقتصاد القومى . وقد ركزت الجلسة العلمية الأولى اهتمامها على تحديد أصول الشعوب فى الاتحاد السوفيتى ، واشترك فى هذه الجلسة أكبر العلماء فى التاريخ والآثار والاثنوغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم اللغة والتخصصات الأخرى . ونكتفى هنا به مجرد ذكر النتائج الأساسية لتلك الندوة العلمية ، لأن مادتها قد نشرت بالتفصيل على صفحات الجرائد والمجلات .

وكان المؤرخ سميرنوف (A. P. Smirnov) وهو عالم الآثار فى الوقت نفسه ، من أبرز وأهم المحاضرين فى تلك الجلسة . وقد كرس العالم كل نشاطه العلمى لدراسة تاريخ البولجار الذين كانوا يسكنون ضفاف نهر الفولجا ، وأكد فى الجلسة على أن « الغزو المغولى لم يحدث تغييرا ذا أهمية فى الشعب البولجارى » ، وعقب الغزو المغولى لارضى البولجار « قامت بين البولجار والمغول علاقة تشبه علاقة روسيا مع الغزاة . . وليس هناك مجال للحديث عن أى تغيير سكاني فى بولجاريا (٦) ، اذ لا يوجد لذلك أى أدلة » (*) . لقد أثبت سميرنوف من خلال تحليلاته للآثار التى تعود الى مرحلة ما بعد الغزو ، أن حضارة البولجار قد استمرت فى تطورها الطبيعى دون أى تغيير . وحين قدم العالم سميرنوف عرضا عن أنثروبولوجيا التتار الذين نراهم اليوم ، أشار الى أنهم يمثلون الجنس الأوربى ، وأن نسبة ضئيلة منهم يحملون الملامح المغولية ، وأن « المغول بعد أن أتوا بالسيف والنار الى ضفاف نهر ايدل (الفولجا) لم يستقروا بين البولجار (تثار اليوم) ، ولم يؤثروا تأثيرا ملحوظا على الشعب » . ويؤكد سميرنوف على أن الشعب التتارى يعلم أصوله جيدا ، اذ أنهم أطلقوا على أنفسهم قرونا طويلة اسم « البولجار » ، وحتى المخطوطات الروسية التى تعود الى القرن السادس عشر ، لم تطلق عليهم اسم « التتار » ، بل « البولجار » . ويشير العالم معتمدا على الحقائق الأنثروبولوجية والآثار والمآثور الشعبى وما بقى من الآثار الأدبية والفنية وآثار الفن المعمارى ، الى أن حضارة البولجار فى فترة الامبراطورية الذهبية بنيت على أساس الحضارة الاقليمية للعصور السابقة . واذا قمنا بالمقارنة بين حضارة اماره قازان أو حضارة الشعب التتارى الذى نراه اليوم ، تأكدنا بسهولة ويسر أن حضارة تثار قازان هى امتداد لحضارة

البولجار ، وأنها من خلال تاريخها المديد قد تشربت مثل حضارة أى شعب آخر بعدد كبير من التأثيرات المختلفة » (*) .

وفى هذه الجلسة نجد أيضا الأستاذ الدكتور فوروبيوف (N. I. Vorobyev) وهو عالم متخصص فى التاريخ والانثوغرافيا للشعب التتارى والتسعب التشوفاشى (V) ، ويؤكد على أن « التحليلات لأسلوب حياة التتار تمنح حق اعتبارهم من الشعوب الناطقة بالتركية ، وأنهم من سلالة البولجار » (**) .

وقد أكد العالم المشهور زالاى (L. Zalay) المتخصص فى لغة الشعوب الناطقة بالتركية ، أن لغة التتار الذين نراهم اليوم تعد استمرارا مباشرا وطبيعيا للغة البولجار . وكان زالاى يعتمد فى حديثه على الدراسة المقارنة بين ما بقى من الآثار للغة البولجار ولغة الشعب التتارى الحديث ، وهو بذلك يشير الى بطلان ما يدعيه بعض علماء اللغة أن لغة البولجار قد انقرضت . يقول زالاى : « ان المرحلة الأولى لتكوين لغة التتار تعود الى المرحلة البولجارية ، والدليل على هذه وحدة اللغة للشعب التتارى التى ما زالت تستعمل حتى اليوم بكافة لهجاتها ، وما بقى من لغة البولجار المكتوبة » (***) . اذن اللغة التتارية الحديثة قد تشكلت وتطورت من اللغة البولجارية والقبجاقية ، وكل منهما تعود الى مجموعة لغوية واحدة هى اللغة التركية .

ونجد عالم التركيات يعقوبفسكى (A. Y. Yakubovskiy) وهو من أبرز علماء التاريخ وعضو - مراسل بأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى ، يطرح فى خطابه الذى ألقاه فى الجلسة ، سؤالا : « ما صلة التتار الذين نراهم اليوم بتتار الامبراطورية الذهبية ؟ » ثم يجيب على هذا السؤال قائلا : « نجد فى أبحاث بعض المؤرخين ظاهرة الخلط بين تواريخ الشعوب المختلفة . ان سكان جمهورية تتارستان الذين يسكنون مساحة بلاد البولجار القديمة ، لم يرحلوا عنها ، ولم يتم القضاء عليهم ، بل ما زالوا يعيشون هناك حتى يومنا هذا . وفى الحقيقة نستطيع القول وبكل تأكيد ان الأساس لشعب جمهورية تتارستان الشقيقة يتشكل من البولجار القدماء الذين ضموا الى أنفسهم عناصر جديدة لم تدرس حتى الآن ، والذين اكتسبوا اسم التتار فيما بعد » (****) .

Ibid p. 16.

(*)

Ibid. p. 88.

(**)

Ibid. p. 88.

(***)

Ibid. p. 132-133.

(****)

ويشير الأستاذ الأكاديمي جريكوف (B. D. Grekov) عند عرضه
لنتائج المؤتمر الى أن أغلبية المشتركين في المؤتمر الذين قاموا بالقاء
محاضراتهم ، قد انجهوا الى رأى واحد ، فتأتى النتيجة تلقائية « (*)
كما أشار العالم الأكاديمي الى أن هذه المناقشات طرحت أسئلة جديدة
حول أصول شعوب أخرى تسكن ضفاف نهر الفولجا ، ودرجة قرابه لغة
تلك الشعوب وما يشبه ذلك .

لقد توصل المؤتمر العلمى الى نتيجة رئيسية وهى أن الشعب
التتارى الذى نراه اليوم ، بأصوله وجذوره ليس له أدنى صلة بالمغول ،
ولكنهم أحفاد حقيقيون للبولجار ، وأن تسميتهم باسم التتار خطأ
تاريخى . وقام المؤتمر بالنوصية على تدعيم الأبحاث من أجل اعداد جديد
لتاريخ الشعب التتارى ، وعلى ضرورة اعتمادها على الحقائق العلمية فى
شتى التخصصات ، ووضع حد للمقارنة التى لا أساس لها ، بين الشعب
التتارى الذى نراه اليوم ، وبين التتار - المغول .

وقد مضى منذ ذلك الحين ثلاثون عاما ، وتم تنفيذ جزء كبير من
توصيات المؤتمر ، ونجد على سبيل المثال الأستاذ الدكتور سميرنوف
ينشر كتاب « بولجار نهر الفولجا » فى عام ١٩٥١ الذى يعتمد على مادة
علمية ضخمة فى علم الآثار والأنثروبولوجيا والنقد الفنى والمأثور الشعبى .
ويعد كتابه هذا خلاصة أبحاثه وعمله الذى استمر سنين طويلة فى دراسة
واعداد تاريخ البولجار . وقد اعتمد الكاتب فى هذا الكتاب على وناثق
علمية جديدة ، وأيد تأييدا كاملا نتائج المؤتمر لأصول الشعب التتارى
الحديث . ويشير العالم فى كتابه الى « أن هناك صلة وثيقة تربط
البولجار مع تتار مدينة قازان ، وهى تظهر بوضوح فى الأبحاث
الأنثروبولوجية وفى الآثار التاريخية وما بقى من الآثار المكتوبة . ثم هناك
دليل قوى آخر يؤكد هذه الصلة ، وهى شجرة النسب التى احتفظ بها
كثير من الأسر التتارية ، والتى تنتهى الى البولجار » (**) . ونجد الصلة
الوراثية التى تربط بين التتار والبولجار ، تبدو بوضوح فى أيامنا هذه ،
« فاذا قمنا بالمقارنة بين حضارة البولجار والشعب التتارى الحديث لوجدنا
أن حضارة البولجار هى الأساس الذى قامت عليه حضارة التتار » (***) .
ويشير المؤلف الى استمرار مظاهر حياة البولجار عند الشعب التتارى الذى
نراه اليوم ، فى الملبس وأسلوب انشاء المباني وفى فن الزخرفة والمصوغات

Ibid. p. 158

(*)

Smirnov, A. P. : Voljskiye bulgari. M. 1951. s. 75.

(**)

Ibid. p. 76.

(***)

وما يشبه ذلك . يقول المؤلف : « لاشك في أن شكل المصوغات الحديثة قد قام وتطور على أساس الفن البولجاري . وعند تحليل المصوغات نجد أوجه الشبه تفوق التشكل العام ، اذ يتضح ذلك من الجزئيات وأسلوب الزخرفة نفسه » (*) .

واستنتاجات سميرنوف تؤيدها حقائق جديدة في أبحاث عالم النقد الفني المشهور ولييف وهي : « زخرفة تاتار قازان » ، و « الفن القديم وفقن العصور الوسطى على ضفاف نهر الفولجا » ، و « فن العمارة والديكور عند التتار . المسكن الريفي » (**) وقد لقيت نتائج المؤتمر تأييدا كاملا في أبحاث جننج (V. F. Gening) ، وعند خاليكوف في بحثه « البولجار القدامى على ضفاف نهر الفولجا » (***) ، وفخر الدينوف في بحثه « آثار الفن المعماري لدولة البولجار ومساحتها على ضفاف نهر الفولجا وقاما » (****) كما نجد هذا التأييد في أبحاث علماء التاريخ والآثار مثل ستاروستين (N. P. Starostin) ، وبيترينكو (A. G. Petrenko) ، وكازاكوف (Y. P. Kazakov) ، وحليبنيكوفا (T. A. Hlebnikova) ، وخاليكوفا (Y. A. Halikova) ، وبوليسكيح (R. Polesskih) . وكل هذه الأبحاث قد اعتمدت على المصادر العلمية الجديدة ، وتمت اضافتها الى المكتبة العلمية في النصف الثاني من القرن العشرين .

ونجد رأى العالم زالاى في أن لغة التتار الحديثة هي استمرار مباشر للغة البولجار ، يؤكد يوسف في كتابه « مقدمة الى العبارات المقتبسة من اللغة البولجارية - التتارية » (*****) ، حيث يقدم الباحث تحليلا للغة الآثار المكتوبة التي تعود الى دولة البولجار على ضفاف نهر الفولجا والى اماره قازان . كما نجد أحمد يانوف في بحثه « طبيعة الانتقالات الصوتية في اللغات التركية » (*****) ، وبيشيف في « صوتى (ر) و (ز) في

Ibid. p. 78.

(*)

Valeev. F. H. : Ornament kazanskih tatar. Kazan, 1969.

(**)

Drevnee i srednevekovoye iskusstvo Srednego Povol'ya, Yoshkar-Ola. 1975.

Arhitekturno-dekorativnoye iskusstvo kazanskih tatar. Selskoye jilishe, Yoshkar-Ola. 1975.

Halikov. A. H. : Ranniye bol'gari no Volge, M. 1964.

(***)

Fahrudinov. R. G. : Arheologicheskiya pamyatniki

(****)

Voljsko-Kamskoy Bulgarii i eyo teritoriya. Kazan, 1975.

Yusupov. G. V. : Vvedeniye v bulgarsko-tatarskuyu epigrafiku, M. 1960.

(*****)

Ahmedyanov. R. G. : K voprosu o prirode

(*****)

zvukovih perehodov v turkskih yazikah. — Voprosi yazikoznaniya. 1961. 6.

اللغات الالتيائية » (*) ، وحكيمزيانوف في « لهجات مما بقي من الآثار
 للغة بولجار الفولجا » (**) ، وآخرين يؤكدون مرة أخرى على أن لغة
 البولجار لم تنقرض ، فهي بكونها إحدى لهجات اللغة القبطجية ما زالت
 مستمرة حتى اليوم في لغة الشعب التتاري . وبحث أليكسييف عن
 « دراسة أصول الشعوب الناطقة بالتركية بأوربا الشرقية في ضوء علم
 الجماجم » من الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة التي تؤكد نتائج المؤتمر .
 يقول أليكسييف : « ان الشكل الأنثروبولوجي للملامح تتار قازان هو نفس
 الشكل الأنثروبولوجي الذي كان يمتاز به البولجار في مدينتي سوفار (٨)
 وبولجار » (٩) (***) .

ويبدو من أول وهلة أن مشكلة أصول تتار قازان قد انتهت ،
 وتم حلها من كافة النواحي ، كما تم القضاء على الاستخدام الخاطيء لاسم
 التتار ، لكن ديناميكية الرأي السائد ، وان كان باطلا ، قد بلغ ذروة
 العناد ، ولم يتغير في مجال الأدب والصحافة الا الشيء القليل ، ولا تزال
 مؤلفات بعض المؤرخين تنسب التتار الى المغول كما كان الأمر من ذي قبل .
 وللأسف الشديد نستطيع القول ان عدد المؤلفات من هذا النوع لا يقل
 بل يزداد ، وان هذه الأخطاء تتكرر في أغلب الأحيان عند عرض الكتاب
 المؤرخين للتاريخ العام ، أو لتاريخ الدولة الروسية وشعوب الاتحاد
 السوفيتي ، يستثنى من ذلك أبحاث علماء التركيات المتخصصين في هذا
 المجال ، أي الذين يعرفون اللغة والاثنوغرافيا والحضارة والتاريخ للشعب
 التتاري .

وقد تم نشر نتائج المؤتمر العلمي لمناقشة أصول التتار في كتاب
 مستقل ، لكن عدد النسخ كان قليلا لا يتجاوز ألف نسخة . كما تم توزيع
 هذه النسخ في نطاق ضيق ، ولم تتداولها أيدي جماهير عريضة من
 المؤرخين والعلماء ، وأيدي القراء على وجه الخصوص ، ونستطيع القول
 في الوقت نفسه انه لم تبدل أي جهود لترويج نتائج المؤتمر المذكور أعلاه
 في الأبحاث التي نشرت مؤخرا في علم الآثار والاثنوغرافيا وعلم اللغة
 والنقد الفني ، ولم يظهر أي عمل منفرد حول دراسة أصول التتار يستطيع

Bii hev. A. Sootvets'viye R/Z v allayskih yazaikah. (★)

V kn. Issle dovaniya po uygurskomu yaziku. Alma-Ata, 1965.

Hakimzyanov. F. : Sledi dialektov v yazike pamy- (★★)

tnikov Voljskoy Bulgarii. — Sovetskaya turkologiya, 1974, 4.

Alekseev, V. P. : Ocherk proishojdeniya turkskih (***)

narodov vostochnoy Yevropi v svete kranilogii. — Voprosi etno-
 gaza turkoyazichnih narodov Srednego Povolija. Kazan. 1971. s
 248.

زعزعة استمرارية الرأى السائد وجبروته ، الا بحث صغير للأستاذ الدكتور خاليكوف (A. H. Halikov) تم نشره فى عام ١٩٧٥ باللغة التتارية . وهناك بعض المؤرخين الذين يعرفون اختلاف التتار عن المغول ، اكتفوا فى أبحاثهم بمجرد ذكر - بين قوسين - أن التتار الذين فراههم اليوم ليس لهم أدنى صلة بالجيوش التتارية - المغولية ، لكنهم فى الوقت نفسه كثيرا ما يستخدمون اسم التتار بمعنى الغزاة المغول لذلك لا يستطيع القارىء أن يتصور أنه الى جانب الشعب التتارى يوجد تتار آخرون ، لأنه لا يعرف سوى التتار الذين فراههم اليوم أى تتار نهر الفولجا وجبال أورال وسيبيريا .

ونجد كل المؤرخين الروس قبل الثورة البولشفية والمؤرخين السوفيت الجدد بكونهم المتخصصين فى تاريخ الشعوب الناطقة بالتركية لا يخلطون بين التتار والمغول . ونفس الشئ نستطيع قوله بالنسبة الى علماء الآثار والاثنوغرافيا الذين درسوا ماضى شعوب أواسط نهر الفولجا . ويشير مؤرخ التاريخ المعاصر « توكارييف » وهو فى الوقت نفسه من أبرز علماء الاثنوغرافيا ، الى أن « الرأى المتبع الذى يقول ان تتار الفولجا سلالة مباشرة للغزاة المغول الذين قاموا بغزو أوروبا الشرقية تحت قيادة هولاكو فى القرن الثالث عشر ، هو رأى باطل تماما » (*) .

ونرى التناول الخاطى لقضية التتار فى أبحاث هؤلاء العلماء الذين لم يدرسوا تاريخ الشعوب الناطقة بالتركية على ضفاف نهر الفولجا ، ومنهم على سبيل المثال « كوزلوف » الأستاذة الجامعية فى الاثنوغرافيا التى تكتب أن « التتار بجذورهم على صلة وثيقة بسكان الفولجا المحليين ، وأن البولجار شكلوا عنصرا أساسيا فى تكوين الشعب التتارى » (**) . هكذا تدعى الكاتبة أن شعوبا أخرى لعبت دورا كبيرا فى تكوين الشعب التتارى . وواضح أن الباحثة بكونها غير متخصصة فى دراسة أصول الشعوب الناطقة بالتركية ، قد اعتمدت على القراءات الأدبية ، مما جعلها تنحرف فى تيار النظريات غير الصحيحة عن أصول الشعب التتارى . ومما يثير الدهشة حقا هو اصرار الباحثة على ما تدعيه ، وعدم رغبتها فى أن تأخذ فى الحسبان تلك الأبحاث الجديدة التى نشرت فى الاثربولوجيا والآثار واللغة للشعب التتارى الحديث . ونستطيع القول ان كل ما تدعيه الباحثة لا يستند الى حقائق علمية ولا أساس له من الصحة على الإطلاق .

(*) Tokarev A. S. : Etnografiya narodov S.S.S.R. M. 1958. s 171-172.

(**) Kozlova, K.T. : Ethografiya narodov Povoliya. M. 1964. s 20-21.

. ومن ناحية أخرى نجد « نيكونوف » وهو عالم بارز في أحد فروع العلوم الحديثة - الاثنونيميا (١٠) ، يكونه دارسا لجذور أسماء الشعوب وتاريخها يشير الى أن « الشعب الحديث الذي سميت جمهورية تنجستان باسمه ، يعود بجذوره القديمة الى مرحلة ما قبل البولجار ، وأن تاريخ اسم التتار يختلف اختلافا تاما عن تاريخ الشعب نفسه » . ويتناول الباحث في كتابه استشهادات بعض المؤلفين لاسم التتار الذي يعود الى الغزاة المغول في القرن الثالث عشر ، كما يتناول الجدل المستمر بين العلماء الذين انقسموا في استخدامهم لهذا الاسم الى فريقين ، كل منهما لا يستطيع أن يفهم الآخر . ومن هنا يشير الباحث الى أن « هذا الجدل الذي يؤدي الى تعقيد الأمور ، سيستمر بلا نهاية اذا لم نتعلم كيف نفرق بدقة بين تاريخ اسم الشعب وتاريخ الشعب نفسه » (*) . واذا كان كثير من العلماء والمؤرخين لا يستطيعون حتى الآن التمييز بين تاريخ اسم الشعب وتاريخ الشعب نفسه فماذا ننتظر من القراء العاديين ؟! ويعبر نيكونوف عن أسفه الشديد تجاه بعض المؤرخين الذين يستخدمون هذا الاسم بحرية وبلا تكلف ، مما أدى الى تضليل العلماء والباحثين والجمهور العربي من القراء تجاه أصل التتار وتاريخهم الحقيقي .

Nikonov, V. A. Ethonimiya. — Sbornik Etnonimii M. 1970. (★)
s 11.

اسم التتار بجذوره ومن سمي بهذا الاسم

ان اسم التتار بجذوره اللغوية قد استرعى انتباه الكثير من العلماء . ونجد تفسيرات مختلفة لهذا الاسم ، فهناك من يرى أنه مشتق من (تات) بمعنى الجبل و (آر) بمعنى الساكن ، أى ساكن الجبال (*) . والمعروف أن اللاحقة (آر) تستخدم فى أسماء كثير من الشعوب مثل : بلغار ومديار (١١) وآوار (١٢) وخازار (١٣) وميشار (١٤) وسوفار (١٥) ، حيث كلمة (آر) فارسية الأصل بمعنى الانسان ، لكن كلمة (اير) التركية بمعنى الانسان تنسب كالمعتاد الى آر ، ومن هنا يبدو أن اسم التتار يعود بجذوره الى اللغة التركية .

ونجد « بيلوزورسكايا » (**) تربط جذور اسم التتار بالكلمة الفارسية (دفتر) وبمعنى الاستعماري . لكن اسم (تبتار) ظهر فى وقت متأخر ، حين بدأ يطلق على بولجار نهر الفولجا وامارة قازان الذين هاجروا الى جبال الأورال وباشكيريا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، اذن لا يوجد أى صلة بين كلمة (تبار) و (دفتر) . وهناك محاولات أخرى لتفسير الجذور اللغوية لاسم التتار من الكلمة الطونغوسية (تاتا) بمعنى الرامى من القوس وبمعنى أن يجز ، لكن هذا التفسير أيضا لا أساس له من الصحة .

ويربط عالم التركيات المشهور « يريميف » جذور اسم التتار بكلمة فارسية وبشعب فارسي قديم ويقول : « انسا نستطيع من المقطع الأول لاسم التتار (تات) عقد المقارنة بينه وبين اسم سكان ايران القدامى ، ويشير محمود القشغاوى الى أن الأتراك أطلقوا اسم التات على هؤلاء الذين يتحدثون الفارسية أو اللهجات الايرانية بصفة عامة . وكان الأتراك يطلقون اسم التات أيضا على جيرانهم الآخرين كالصينيين والأيغور . ويبدو من ذلك أن المعنى الأصلى لاسم التات كان « الايراني » أو « الناطق

Suharev. A. A. : Kazanskiye tatari. SUB, 1904, s. 22.

(*)

Belozerskaya, O. : "Znaniye sila." 1970. 7.

(**)

باللغة الايرانية » ، ثم بدأ يطلق هذا الاسم على كل غريب وأجنبي « (*) » .
ونجد كلمة (ترتر) فى الأساطير الاغريقية تعنى عالم الغيب
أو الجحيم . وقد عرفت شعوب أوربا اسم التتار بمعنى ترتر . وكان
الترتر فى مفهومهم قوما يجلب الأهوال والموت والعذاب ويأتى بنهاية
العالم ، لذلك نجد فى دائرة المعارف الانجليزية كلمة « ترتر » تذكر
بمعنى اسم الشعب ، وفى الوقت نفسه نجد لهذه الكلمة تفسيراً آخر أى
بمعنى شخص متسلط ، مشاكس ، عصبى الطباع .

ويرى الكثيرون أن اسم التتار مشتق من اللغة الصينية ، إذ كانت
هناك قبيلة مغولية يطلق عليها اسم « تاتا » أو « دادا » أو « تاتان » ،
تسكن منطقة مانجوريا وشمال شرقى منغوليا فى القرن الخامس الميلادى .
وكانت بعض اللهجات الصينية التى يتوفر فيها صوت يشبه صوت (ر) ،
تطلق عليها « ترتر » أو « تتر » . وقد تميزت تلك القبيلة بروح قتالية
عالية ، مما جعلها تهدد القبائل المغولية المجاورة أو القريبة منها ، وتزعج
الصينيين أنفسهم . وكانت غارات قبائل تاتا تجلب للصينيين الأقوياء
كثيراً من التعب والعناء ، لذلك كان الصينيون يقصدون تصويرهم
بالبرابرة الهمجيين . وقد أطلق مؤرخو الصين هذا الاسم فيما بعد على
الشعوب الشمالية المجاورة لها ، أو على الشعوب المعادية لها بصفة عامة ،
وكان منها قبائل غير مغولية الأصل من منطقة آسيا . وبفضل خفة يد
الصينيين انتقل اسم التتار كمرادف للبرابرة المتوحشين الى المصادر
العربية والفارسية ثم الأوروبية (**).

وقد أعلن القائد المغولى جنكيز خان عن شدة غضبه على قبائل تاتا
بقوله : « كان التتار يقتلون آبائنا وأجدادنا من قديم الزمان ، فسوف
نأخذ بثأر هؤلاء السلف » (***) وجمع جنكيز خان كل جيوشه وقضى
بالفعل على تلك القبائل . ويقول كيتشانوف المؤرخ السوفيتى لتاريخ
المغول : « هكذا تم القضاء على قبيلة تتر قبل ظهور المغول على مسرح
التاريخ ، تلك القبيلة التى تركت مجرد اسمها يطلق على جميع القبائل
المغولية . وعقب مرور ما يقرب من ثلاثين عاماً ارتفع صياح (التتار)
أثناء مجازن المغول فى مدن وقرى الغرب النائية ، مع أن التتار لم يبق
منهم فى جيوش الغزاة الجارفة الا القليل ، ولم يبق منهم الا الاسم الذى

(*) Yeremeev, D. E. : K semantike turezkoy etnonimii, V sb.

Etnonimi. M. 1970. s. 134.

(**) Brokgauz, Tiron : Ensiklopediche kiy slovar. T. 67. 1902.

s. 347.

(***) Dzan, L. : Altan tobchi. M. 1973. s. 62.

(***)

كان يثير الرعب بين الشعوب المختلفة ، بينما هم أنفسهم كانوا مدغونين منذ زمن بعيد في تراب أوطانهم » (*) .

لقد أصدر جنكيز خان أمرا بمنع استخدام اسم التتار الذي كرهه من أعماق قلبه . وحينما قام الرحالة الأوروبي روبروك (Rubruk) (١٦) بزيارة جيوش المغول في عام ١٢٥٤ حذروه بشدة من ذكر اسم التتار أمام المغول ، لكن هذا الاسم كان قد انتشر في ذلك الوقت انتشارا واسعا شمل مناطق آسيا وأوربا بكافة بلادها حتى المحيط الاطلنطي ، ولم تستطع مثل هذه الاجراءات الادارية أن تمحو هذا الاسم من ذاكرة الشعوب .

وغداة الغزو المغولي انتقل اسم التتار الى أوروبا عن طريق التجار والرحالة عقب عودتهم الى ديارهم من بلاد الشرق ، وبعد أن بلغت جيوش المغول قلب أوروبا عم سكانها الشعور بالفرع والقلق ، واتجه ملك فرنسا لودفيك التاسع الى مخاطبة المسيحيين ، يحثهم على لعنة التتار القادمين من الآخرة ، ويدعوهم الى الصلاة والصيام الجماعي ليستجيب لهم الرب الأعلى ، وينقذهم من « نهاية العالم » . وكان الملك أثناء خطبته هذه يشبه المغول بأهل ترتر ، ويفسر ظهورهم باقتراب يوم القيامة وفتح باب جهنم للبشرية برؤمتها . وأخذ الناس منذ ذلك الحين يؤمون الكنائس للصلوات كي يحميهم الرب من هؤلاء التتر ، فكانوا يرددون بشقة وحماس اللعنات المنصبة على التتار ، إذ أنهم لم يروا طريقا آخر للانقاذ .

ولم يتجه المغول صوب المحيط الاطلنطي ، لكنهم قصصوا البحر الادرياتيكي ، وحين بلغ جيوش المغول خبر وفاة الخان (١٧) العظيم عادوا فاجاة الى ديارهم . وقد ترك سلوكهم هذا في أذهان شعوب أوروبا أن الرب قد استجاب لصلواتهم ودعواتهم ، وأنقذ البشرية من اقتراب نهاية العالم . ومنذ ذلك الوقت اكتسب الملك لودفيك التاسع لقب لودفيك المقدس ، وأصبح التتار « موسومين بوصمة تاريخية كشعب همجي عند رجال الكنيسة والمؤرخين القدامى ، أما المؤرخون الجدد فأضحى اسم التتار في كتاباتهم تسمية جماعية تشبه اسم الأسقوثيين عند الاغريق والكفار عند المسلمين » (**).

والمعروف أن امبراطورية المغول قد تفككت في القرن الخامس عشر الميلادي، ورغم ذلك استمر المؤرخون الغربيون والمستشرقون في اطلاق اسم

Kichanov. Y. I. : Jizn Timuchina dumayushego pokorit mir. (*)
M 1973 s. 62.

Ritter. K. : Zemlevladieniye Azii. SPb. 1856 s. 667. (**)

« الترتار » على كافة شعوب الشرق حتى القرن الثامن عشر الميلادي . وكانت أوروبا القرون الوسطى تقدم « الترتار » لتخويف الجماهير في صورة أناس مقوسمة سيقانهم لهم قرون وعيون ضيقة مرتفعة لحاظها ، ومن آكلة لحوم البشر ، وبهذا « تسببت في تضليل كل الشعوب الأوروبية التي أتت في الزمن اللاحق ، فأصبح استخدام اسم « الترتار » ظاهرة عامة لدى كافة الشعوب المسيحية » (*) . ونجد العالم « ريتتر » يشير في كتابه الى أن « الالتباس الأكبر نجم في التاريخ بعد أن أطلقت الشعوب الأوروبية على الشعوب الناطقة بالتركية اسم « الترتار » ، وبعد أن ضمت اللغة التركية الى اللغة التتارية التي لا يعرفها أحد ، لكنها في رأيهم لا تختلف عن اللغة المغولية » . ويشير المؤلف في نفس المكان الى أن المغول لم يبقوا في روسيا على الاطلاق ، و « بعد أن ضم الروس الى بلادهم اماره قازان وامارتى استرخان والقرم بقى اسم التتار يطنق على سكانها رغم أنهم كانوا من الشعوب الناطقة بالتركية ، فأصبحت لغتهم منذ ذلك الحين تسمى تتارية وليست تركية » (**) .

ولم يقف الأمر عند ذلك فحسب ، بل بدأ الأدب الأوربي في القرون الوسطى ينسب الروس أنفسهم الى التتار ، وأخذ الأوربيون يطلقون على اماره موسكو اسم ترتاريا ، لأن الروس أسوة بالبولجار كانوا من اتباع الامبراطورية الذهبية . وكانت أوروبا في القرون الوسطى مثلما كان الصينيون من قبل ، ترى نفسها مركزا للأرض والحضارة ، فاعتبر الأوربيون الغربيون وعلى رأسهم رجال الكنيسة أو مؤيدو سلطة الكنيسة أن شعوبا أخرى هم همج ورتتار . وهكذا التقت كلمة « تاتا » الوافدة من الصين مع « ترتار » في أوروبا بمعنى واحد أى الهمجى ، مما أدى الى تثبيتها في وعى الجماهير بهذا المعنى ، كما ساهم التشابه الصوتى بين تاتا وترتار بدوره في هذا الصدد .

وفى مثل هذا المناخ « الملائم » كان من السهل على رجال الدين والمؤرخين والأيدولوجيين الرسميين أن يقدموا التتار في صورة البرابرة الهمجيين من سلالة المغول الغزاة ، مما أدى الى خلط شعوب مختلفة في اسم واحد ، كما أدى ذلك قبل كل شيء الى تشويه أصول الشعب التتارى الذى نراه اليوم . وفى نهاية الأمر كل ما قيل وقال انتهى الى تزيف التاريخ لكثير من الشعوب الناطقة بالتركية ، وفى مقدمتهم الشعب التتارى الحديث . ونجد « ريتتر » وهو من أشهر علماء الروس فى الجغرافيا

Ibid., s. 677.

(*)

Ibid., s. 678.

(**)

والتاريخ الذى تتلمذ عليه « رادولف » العالم الأكاديمى فى علم التركيات يقول : « رغم سوء استخدام اسم التتار فى الجغرافيا والانتوغرافيا الذى أطلق أسوة على الأتراك الغربيين وعلى القبائل المغولية فى مانجوريا الشرقية ، قد أصبح هذا الاسم نسمية مستحدثة تعنى كتلة مختلطة من شعوب آسيا الوسطى ، لذلك نجد دراسة كل ما كتب حول هذا الجزء من العالم أمرا صعبا للغاية » (*) .

وقد أدرك بعض العلماء الروس منذ منتصف القرن التاسع عشر ضرورة تمييز اسم المغول والتتار عن أسماء الشعوب الناطقة بالتركية ، كما رأوا أن استخدام هذا الاسم بلا ضابط أو رابط يؤدي الى تشويه تاريخ بعض الشعوب وماضيها ، ويعوق الأبحاث العلمية الجادة تجاه حضارة الشعوب ولغاتها وأصولها .

ان قضية التحديد الاصطلاحي من أهم القضايا فى المجال العلمى بكافة فروعها ، لذلك نجد العلماء يشيرون فى كتاباتهم الى أنه اذا أمكن القضاء على الفهم المختلف والتفسيرات المختلفة لبعض المصطلحات لاستطاع العلم أن يتخلص من أعباء كثيرة وتناقضات فى الأسماء ، ولأصبح يواكب تطوره قدما بخطى أسرع . وتبدو هذه الظاهرة بوضوح فى التفسيرات المختلفة لاسم التتار التى أدت الى الخلط وظهور الخرافات بمختلف أنواعها ، والى تشويه تاريخ جذور الشعب بأكمله .

من هم أسلاف الشعب التتارى الحديث ؟

ان الشعب المعروف باسم التتار اليوم أو تتار قازان هم سلالة مباشرة لبولجار نهر الفولجا ، لكن من هم البولجار أنفسهم ؟ نجد المؤرخين يقدمون تفسيرات مختلفة لأصول البولجار ، فهناك من العلماء مثل جيلفيردتك (A. Gilferding) وايرينشك (K. Ircchek) ودرينوف (M. Drinov) وزولوتنيتسكى (N. Zolotnitskiy) وروستلر (R. Rostler) يرون أن أصولهم تنحدر من الأورالتشودية (١٨) ، أما العلماء مثل ميكلسوشى (F. Miklosi) وفامبيرى (A. Vamberi) وتوماشك (V. Tomashuk) وكون (G. Kunn) ورادلوف (V. V. Radlov) وميكولا (I. Mikola) فيرون أن أصولهم تركية ، ويرى زولوتارسكى (V. N. Zolotarskiy) وماركفارت (F. Markvart) أن أصولهم هونية أى تنحدر من قبائل الهون (١٩) (وهذا يعنى أن أصولهم تركية أيضا) . وهناك من يرى أن البولجار يستمدون أصولهم من السلاف ، وهناك من يرى أن أصولهم فراكية . ويشير المؤرخ السوفيتى « سيروتينكو » الى أن بعض الكتاب يتخذون من المخطوط « أيام ميلاد حكام البولجار » دليلا لادعاءاتهم، حيث فسر كل منهم الأسماء البولجارية طبقا لوجهة نظره الخاصة، فوصلوا فى النهاية الى استنتاجات متضاربة(*) . ويرى العالم سميرنوف (A. P. Smirnov) أن البولجار هم أهل البلاد الأصليون الذين يستمدون أصولهم من قبائل صرمت (٢٠) وآلان (٢١) ، والذين تعرضوا للتأثير التركى فى بداية الألف الأول الميلادى . وهذا رأى قريب من رأى العالم سيروتينكو الذى يرى أن البولجار القدامى هم قبائل تفرعت من قبائل صرمت وآلان ، وكانت تسكن شمال القوقاز ومنطقة تمتد بين نهري الفولجا والدون قبل الزحف الهونى . وقد تعرض البولجار فى رأيه للتتريك عقب هجرة القبائل التركية الى تلك المناطق منذ القرن الثانى الميلادى . ويرى مريبيرت (N. Y. Merpert) أن البولجار القدامى ليسوا

(*) Sirotenko. V.T. : Osnovniye teorii proishojdeniya drevnih bulgar i pismennyye istochniki 4-7 v.v. Ucheniye zapiski Permskogo gos. universiteta, t. 20 vîp. 4, 1961, s. 6.

من السكان المحليين ، لكنهم من القبائل التركية التي زحفت قبل الهون من آسيا الى شواطئ بحر آزوف ونهر الدون والى سهوب القوقاز في القرن الأول الميلادي حيث اختلطت بقبائل صبير وآلان . ونجد ماير (M. Mayer) ينسب البولجار القدامى الى القبائل الأغوزية (٢٢) الذين شكلوا أساس الكثافة السكانية لمملكة البولجار على ضفاف نهري الفولجا والدون ، وهناك آراء أخرى حول جذور البولجار القدامى ، وهي قريبة الى حد ما من الآراء التي سبق ذكرها .

ورغم هذا الاختلاف في الرأي اتفق كل المؤرخين واللغويين على شيء واحد : هو أن البولجار في القرن الخامس الميلادي كانوا من القبائل الناطقة بالتركية (*) . ونجد المؤرخ السوفيتي « يريميف » يسلم بأن بعض القبائل التركية كانت تسكن آسيا الصغرى قبل أن يتم تشكيل الشعب التركي ، ويشير في كتابه الى أن « قضية أصالة الشعب التركي بجذوره المحلية في آسيا الصغرى يوجد فيها بعض الحقيقة ، فالأثرak على وجه التقريب سلالة مباشرة لسكان آسيا الصغرى (**) » ويقول المؤرخ نفسه في موضع آخر : « ليس هناك شك في أن القبائل التركية بأعدادهم الضخمة كانت تمثل الجيرة الدائمة لشعوب آسيا الصغرى والقوقاز والبلقان منذ القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، وكانت أعدادهم تتزايد في هذه المناطق بصفة مستمرة » (***) .

وهناك اشارات هيرودوت (القرن الرابع قبل الميلاد) والمؤرخين الأرمن القدامى الى وجود الأتراك في المناطق المذكورة ، مما يدعوا الى الاعتقاد بأن القبائل التركية كانت تسكن جنوب شرق أوربا في بداية العهد الميلادي . ثم ان توافد أقربائها الجدد الى هذه المناطق لم يحدث تغييرا جذريا في حياة ولغة تلك القبائل ، ولم يؤد الاختلاط بينها الى ظهور شعب جديد .

ومما يلفت النظر في هذا الصدد ملاحظات العالم الألماني « هومل » حول الألفاظ التركية في لغة شومر (٢٢) القديمة (****) ، مما يؤكد فكرة وجود الأتراك في آسيا الصغرى منذ قديم الزمان ، وقبل العهد الميلادي بزمان بعيد . وقد تعرضت ملاحظات هومل في وقتها لهجوم عنيف من

(*) Seyidov, M. A. : Zameki o gunskey miffologii. — Sovetskaya turkologiya, 1970 — 2. s. 106.

(**) Yeremeev, D. Y. Etnogenez turok, M., 1971, s. 21-22.

(***) Ibid., s. 53

(****) Hommel, F. : Zweihundert sumero-türkische wortgleichungen München, 1915.

قبل علماء اللغات الهندية - الأوربية ، ولم يعتد بها لفترة طويلة عند دراسة تاريخ شعوب هذه المنطقة . ونجد في بحث سليمانوف (*) حقائق علمية جديدة تؤكد ملاحظات هومل ، ومن ثم فأننا لانستطيع تفسير وجود مئات الألفاظ التركية في لغة شومر بمجرد أوجه التشابه ، ومن الصعب أن نعارض استنتاجات سليمانوف التي تؤكد أن أسلاف الأتراك كانوا يسكنون بلاد شومر ، وقد دخلت الألفاظ التركية لغة شومر عقب الاختلاط بينهم .

لقد عاش الشعب الشومري في الألف الثالث قبل الميلاد ، وتم ضم بلادهم الى الدولة الأكادية في عام ٢٤ قبل الميلاد . وفي ضوء ذلك كله لا بأس من الإشارة الى لغة شعوب دولة مينوى وحضارتهم أي حضارة شعوب جزيرة كريت وجزر اليونان وبحر ايجه في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد ، حيث نجد أن الآثار المكتوبة التي وصلت إلينا من حضارة مينوى كانت تشهد انتباه العلماء منذ زمن بعيد . وقد تم حل رموز كتابة (ب) الخطية لهذه الحضارة . ونجد كتابة (أ) الخطية لنفس الحضارة مكتوبة برموز كتابة (ب) (٢٤) ، ولكن ليس بالمستطاع قراءتها حتى الآن ، لأن المؤرخين واللغويين لا يعرفون اللغة التي كتبت بها هذه الآثار . وقد اتفق العلماء على أن لغة الكتابة (أ) ليست يونانية وليست هندية - أوربية . وتشير تحليلات لغة الكتابة (أ) الى أنها تشبه لغة شعوب بولينيزيا (٢٥) (Polynesiya) وتذكرنا بعناصر اللغة اليابانية . وقد تم التوصل الى هذا التشابه على أساس التشابه البنائي أو التركيبي لهذه اللغة مع اللغات المشار اليها . ويقول العالم « ريزانوف » في كتابه : « لناخذ مصدرا آخر يتمثل في صور سكان كريت على الجدران والأواني والتماثيل ، وخاصة الأقنعة الذهبية من المقابر ، فسنجد عليها تركيبة الوجه الآسيوي الذي يتميز بعظم وجنتيه العريض والأنف الفاطس . وكيف نتجاهل في هذا الصدد المصادر المصرية التي تشير الى أن سكان كريت كائنات بشرتهم خمرية اللون ؟ ومن ثم فقد تكون قرابة اليابانيين مع أهل كريت ليست أمرا مستحيلا ؟ وتشير الآثار اليونانية الى أن لغة سكان كريت كانت متعددة . وهناك أدلة قوية أخرى تدعو الى الاعتقاد بأن بعض الشعوب وفدت الى جزيرة كريت من آسيا » (**) ، لأن منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط كانت منطقة تشابكت فيها مجموعات لغوية مختلفة

Suleymenov, O. : Az i ya. Alma-Ata. 1975.

(*)

Bezanov, I. A. : Atlantida : fantaziya ili realnost ? M., 1976 s. 100-101.

(**)

ومنها اللغة الالتائية (٢٦) التي تنتسب اليها اللغة التركية وفق رأى العلماء .

وتتطلب هذه الحقائق والآراء إعادة النظر فيها اذا أردنا تحديد وقت ظهور القبائل التركية في آسيا الصغرى ومناطق البلقان والقوقاز وما بين نهري الدون والبولجا ، وتحديد وقت ظهور البلغار في أوروبا الذين كانت لغتهم فيما يبدو في ذلك الوقت تركية .

ونجد تاريخ هجرة الشعوب من آسيا الى أوروبا (وربما من إفريقيا الى آسيا ثم الى أوروبا) لا يكتب عنها في الأدب على وجه التقريب . ولا شك أن مثل هذه الهجرات للتكتلات البشرية كانت تحدث منذ أزمنة ضاربة في أعماق التاريخ . ويعزو المؤرخون ظهور الشعوب الفينية - الأوغورية (٢٧) في مناطق أوروبا الشمالية والشمالية الغربية الى الألف الثالث قبل الميلاد (*) ، وتلك الفترة قريبة من فترة ازدهار الحضارة السومارية ودولة مينوى . ونجد معظم الشعوب الفينية - الأوغورية قد وفدت مثل الشعوب التركية من آسيا وبقي في لغتهم كثير من عناصر اللغة التركية وحتى من قواعد النحو التركي ، ومن هنا يعزو عدد كبير من العلماء اللغة التركية ولغات الفينية - الأوغورية الى مجموعة لغوية واحدة هي المجموعة الالتائية القديمة . لذلك فان ظهور الشعوب الناطقة بالتركية في جنوب شرق أوروبا وآسيا الصغرى والبلقان واستقرارها هناك منذ فترة امتدت قرونا طويلة قبل الميلاد لم تعد مجرد نظرية تقال . ونجد المؤرخين القدامى مثل هيرودوت (Herodot) وميلا (٢٨) (Mela) وبليني (٢٩) (Pliny) يشيرون في كتاباتهم الى شعب « توركي » يسكن مناطق ما وراء نهر الدون (تنايس) ، وقد ترجم هذا الاسم في الكتب الروسية الى « يوركي » أو « يوركي » وفسره المؤرخون بمعنى تركي (**). وكان البلغار وفق معلومات المؤرخين الأرمن معروفين في بلاد نهر البولجا منذ القرن الثاني قبل الميلاد (***) .

ونحن نعلم جيدا هجرة قبائل تركية أخرى في بداية العهد الميلادي . وقد ظهرت على مسرح التاريخ قبائل الهون الناطقة بالتركية التي عبرت نهر الدون في عام ٣٧٠ م . وانتصرت على شعوب شمال

(*) Etnogez finno-ugorskih narodov po dannim antropologii. M., 1975s. 16.

(**) Yampolskiy. Z. : O turkah 5 veka do nashey eri. — Ucheniye zapiski Azerb. gos. un-ta, seriya yazik i literatura, 1970, vip. 5-6, s. 10-12.

(***) Lihachev. A.F. : Skifskiye elementi v chudskih drevnostyah Kazanskoy gubernii. Odessa, 1866, s. 15.

القوقاز ، ثم اتجهت وجهة الغرب حتى بلغت حدود امبراطورية روما في عام ٣٧٧ م ونزلت « بانونيسيا » (Panonia) (٣٠) وتفكك اتحاد تلك القبائل عقب وفاة قائدها « اتيللا » ، فعادت الى ديارها في البحر الأسود . وقد باءت محاولات قبائل الهون الجديدة للاستيلاء على بيزنطة بالفشل « وساهمت بقايا الهون بعد هزيمتهم لبولجار الفولجا في تكوين الشعب التشوفاشي الحديث » (*) . لكن من حقنا أن نتساءل هنا : أين ذهبت التكتلات البشرية الضخمة لقبائل الهون ؟ وسنحاول أن نجد الاجابة على هذا السؤال فيما يلي .

ففي الزمن اللاحق نرى على مسرح التاريخ قوم خزار (Hazar) وهم أيضا من القبائل الناطقة بالتركية في أوربا الشرقية التي كانت تسكن ضفاف نهر الفولجا وشمال القوقاز ، وهي نفس المناطق التي كان يسكنها الهون من قبل . وفي عام ٦٦٠ م تم ضم بلاد الهون لدولة الأتراك العظمى ، لكن كيف تكونت هذه الدولة ومن مؤسسها ؟ لا توجد اجابة على هذا السؤال . وعقب انهيار دولة الأتراك الغربية ظهرت مملكة خزار التي تفككت بدورها في القرن العاشر (**) . ومن هنا يلح علينا السؤال : كيف تكونت هذه المملكة ومن مؤسسها ؟ وأين ذهب سكان الاتحادات الدولية الضخمة السابقة ؟

وكانت كل قبائل هذه الاتحادات الضخمة تنطق باللغة التركية ، ومن ثم فليس هناك مجال للحديث عن اذابة الشعوب بلغاتها في شعوب أخرى ، والأحرى بنا أن نتحدث هنا عن صراع القبائل من فصيلة لغوية واحدة ، لكنها تتميز بلمجاتها المحلية المختلفة . وهكذا تتضح الاجابة على السؤال الذي طرحناه من قبل وهو أين ذهبت شعوب تلك الاتحادات الدولية ؟

وفي الفترة التي سبق ذكرها أي في نهاية القرن السادس الميلادي ظهرت على مسرح التاريخ مملكة البلغار العظمى التي شملت مساحة شمال القوقاز ، ضفاف نهر الدون وبحيرة آزوف . وقد ازدهرت هذه المملكة في فترة الحاكم « كوبرات » حين فرضت سيطرتها على تلك المناطق . ولم يمض وقت طويل حتى انتصر الخزار على بلغاريا العظمى ، وتفكك الاتحاد الدولي لكتن شعبه لم ينقرض ، فذهب جزء منه تحت قيادة « اسباروخ بن كوبرات » الى سهوب الدانوب ، وقد مهد لهم هذا الطريق اقرباؤهم الهون من قبل . وكما هو معروف فان هذا الجزء من البلغار

(*) Sovetskaya istoricheskaya ensiklopediya. t. 4, s. 890-891.

Ibid. t. 15, s. 484-485.

(**)

قد ذاب في الأغلبية السلافية ، وبقي اسمهم وأثرهم الواضح في أنثربولوجيا بلغار نهر الدانوب الذين نراهم اليوم ، وفي لغتهم وتقاليدهم . لكن لماذا انتقل جزء من البلغار الى الدانوب بالذات ؟ ربما كانت قبائلهم تسكن تلك المناطق من قبل ا ويشير العالم جينينج الى « أن قبائل الهون كانت تسيطر على غرب البحر الأسود حتى عام ٤٦٨ - ٤٦٩ م . ولم يذكر بين قبائل الهون الشرقية أى قبلة أخرى . اذن لم يبق امامنا سوى الاعتقاد بأن البلغار الذين اتحدوا مع بيزنطة في معركة بلقان عام ٤٨٠ م ، كانوا يسكنون تلك المناطق ، وأطلق عليهم اسم الهون عقب الانضمام الى اتحادهم » (*) .

وفي القرن الثامن الميلادي اتجه البلغار متحديين مع قبائل يتحدثون نفس اللغة الى أواسط نهر الفولجا وكونوا هناك مملكة بولجار (**) . ونجد العلماء المؤرخين حين يتحدثون عن هجرة البلغار الى أواسط نهر الفولجا لا يجيبون على سؤال : هل بقي جزء من البلغار في المناطق التي كانوا يسكنونها من قبل ، أى في شمال القوقاز وشواطئ بحر آزوف ونهر الدون ؟ واذا كانت الاجابة : « نعم » فمن هم السلالة المباشرة لهم اليوم ؟ نحن نتابع الآن البلغار في أواسط نهر الفولجا ثم نحاول أن نجيب على السؤال المطروح .

ويعتقد كثير من المؤرخين أن القبائل الفينية - الأوغورية كانت تسكن أواسط نهر الفولجا في تلك الفترة وهم أسلاف لشعبي ماري (٣١) وأودمورت (٣٢) ، لكن لا يوجد هناك أى أدلة تؤكد أن هذه المنطقة قد تم تعميمها واستصلاحها قبل مجيء البلغار . ويلاحظ ذلك أيضا عالم الآثار السوفييتي « جينينج » ، اذ يشير في كتابه قائلا : « لم تتصل قبائل البلغار التي وفدت الى الأراضي الايمينكوفية (٣٣) بالسكان المحليين ، وقد يكون الايمينكوفيون قد تركوا هذه المنطقة قبل ظهور البلغار في أواسط نهر الفولجا وذهبوا الى مكان آخر » (***) .

ونجد بعض المؤرخين يلاحظون تغلغل القبائل التركية الى أواسط نهر الفولجا قبل ظهور البلغار بزمان بعيد ، ربما بدأت هذه الحركة من ضفاف نهر الدون وشواطئ بحر آزوف وشمال القوقاز ، وقد تكون من آسيا أيضا . ومن هنا يمكن اعتبار الهجرة الجماعية للبلغار استمرارا

(*) Gening, V. F., Halikov, A. H. : Ranniye bolgari na Volge. M., 1964, s. 107.

(**) Halikov, A.H. : Tatar ħalkinin kilip chigishi. Kazan 1974, s. 27-31.

(***) Gening, V. F., Halikov, A. H. : op. cit., s. 153.

لهجرة أجدادهم أو لهجرة قبائل تركية أخرى الى تلك المناطق فيسـل القرن الثامن الميلادي . وكان على البلغار قبل اتخاذ قرار الهجرة الى ضفاف نهر قـاما (٣٤) ، أن يعرفوا جيدا أن هناك أراضي خالية وغنية بالموارد الطبيعية ، وأن يفكروا في امكانية توفير وسائل الرزق لأنفسهم ، وأخيرا كان عليهم تجميع معلومات كافية وصحيحة حول طبيعة المنطقة . ولم تمر هذه الهجرات بخط أفقي وإنما بخط رأسي ، وهنـساك المناخ والظروف الطبيعية تختلف بشدة عن المناطق التي كانوا يسكنونها . وإذا لم يكن البلغار قد أدركوا ذلك كله مسبقا فما كان من الداعي أن يتركوا مناطق تفوق بظروفها المناخية والجغرافية تلك المناطق التي اتجهوا اليها ، وكان من الممكن أن يسلكوا طريق « اسباروخ » (٣٥) بخط أفقي الى الدانوب ، أو يتجهوا الى مناطق أقرب وألطف مناخا ، إذ كان المناخ في ذلك الوقت يلعب دورا رئيسيا في حركة الشعوب وهجراتها ، لأن الحياة كانت قائمة على التنقل والترحال ومرتبطة بتربية المواشي . لذلك فإن لدينا أسبابا قوية للاعتقاد باستقرار بعض القبائل البلغارية أو التركية القريبة لها في أواسط نهر الفولجا قبل هجرة البلغار الجماعية ، وبالتأكيد كانت لها صلة وثيقة بالبلغار قبل هجرتهم بفترة طويلة . وهناك بعض المؤرخين يسلمون بحقيقة استقرار البلغار واقامتهم حول مصب نهر قـاما قبل هجرة البلغار الجماعية (*) . ويؤكد ذلك الرأي التأقلم السريع للبلغار عقب هجرتهم الى أواسط نهر الفولجا .

وقد تكون القبائل التي اشتركت في تكوين دولة بلغاريا العظمى ، تميزت بأصولها ، « لكن ليس هناك أدنى شك في أن هذا الاتحاد تم بناؤه على القرابة بين لهجات لغة واحدة هي اللغة التركية القديمة » (**). ومن الصعب أن نعارض رأى المؤرخين الذين يؤكدون الأصول التركية للاتحادات القبلية والتكتلات البشرية في المناطق التي كان يسكنها البلغار . وقد بدت وحدة اللغة أكثر قوة بلا شك في فترة ظهور بلغاريا العظمى في ظروف الاتحاد السياسي والترابط الاقتصادي ووحدة التنظيم العسكري والاتصالات الوثيقة الأخرى القائمة على صلة الرحم . ونجد البلغار أثناء هجرتهم الى أواسط نهر الفولجا كانوا يشكلون كتلة متجانسة تتحدث لغة تركية مع بعض العناصر من التقاليد التي احتفظت بها .

Aristov, N. A. : Zametki ob etnicheskom sostave turkshich plemyon i narodnostey i svedeniya o ih chislennosti. — Jivaya starina, 1896, vip. 3-4, s. 407. (★)

Gening, V. E., Halikov, A. H. : oj. cit., s. 130. (★★)

البولجار على ضفاف أواسط نهر الفولجا

هناك دراسات كثيرة حول تاريخ بولجار الفولجا ، فلا داع أن نشغل أنفسنا بعرض تاريخهم وتطوره • وقد اتفق جميع المؤرخين على أن استيطان البولجار لأراضي أواسط نهر الفولجا تم بطريقة سلمية بعيدا عن أى مناوشات حربية • وعلى أية حال فلا يوجد بين أيدينا أية أدلة أو وثيقة تثبت استيطان البولجار التعسفى للمنطقة • وقد أكد المؤرخون أن البولجار لم يشغلوا أنفسهم بالحروب العدوانية عقب استقرارهم فى المنطقة ، بل كانوا يعيشون حياتهم السلمية ، يزرعون أنواعا مختلفة من الفواكه والخضار والحبوب ، ويشيدون المدن بها الخانات وأتابيب الميساه ، ويصنعون المصوغات الرائعة ، ويقومون بسبك حديد الزهر أو نصنيع الفراء والجلود ، يبنون الجوامع والمدارس ، ويمارسون النشاط التجارى مع بلاد مختلفة سواء أكانت فى الغرب أم الجنوب أم الشرق • ونجسد الرحالة يشيرون الى أن البولجار كانوا يمتنازون بالتسامح الدينى ، ويلبسون على تطوير ثقافتهم ويهتمون بالشعر ، ولديهم علماء ومؤرخون وحرفيون ومدارس ومكتبات وأبحاث فى شتى الفروع العلمية • أما عاصمة مملكة « بولجار » فكانت مركزا للنشاط التجارى بين الشرق والغرب • والمعروف أن تحويل الدولة الى مركز تجارى بين مختلف الشعوب كان يحتاج الى التسامح الدينى والتعايش السلمى ، مما أدى الى استتقرار الدولة وازدهارها •

لقد منحت علاقات البولجار الوثيقة مع الشعوب المجاورة ابتداء من حدود الصين والهند حتى اسكندينايا وأوربا الغربية فرصة استيعاب الانجازات الحضارية لكثير من الشعوب ، وخاصة الحضارة العربية التى كانت حينئذ فى مقدمة الحضارات • ونجد أسلوب التطور السلمى وتجنب الحروب العدوانية وإنشاء المدارس والاعتناق الرسمى للديانة الاسلامية قد أدى الى سرعة توحيد البولجار سواء أكان فى اللغة والثقافة والاقتصاد أم فى الطباع والعادات والتقاليد وأساليب الحياة ، أو بتعبير آخر أصبحت لهم الوحدة القومية أكثر قوة •

ولم يبق البولجار بعد وصولهم الى ضفاف نهر الفولجا فى صورة أصلية دون تغيير ، فكانت عملية توحيد قبائل البولجار مستمرة • وربما

حدث هناك تقارب وامتزاج بينهم وبين القبائل الفينية - الأوغورية المجاورة لهم وبنسبة ضئيلة بينهم وبين القبائل السلافية. لكننا لا نستطيع القول ان نطاق هذا التأثير كان واسعا ، اذ أن الوثائق في عالم الآثار تشير الى عدم حدوث تغيرات ملحوظة في تطور البولجار الحضارى ، وتؤكد ذلك الوثائق الاثنوغرافية والمادة اللغوية والانثروبولوجية ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو الى الحديث عن التغيرات الناتجة عن هذا التأثير في الشعب البولجارى أو عن ظهور شعب جديد .

ومن الصعب أن نجد في التاريخ شعبا لم يتغير . « ومن المتفق عليه أن معظم الشعوب تكونت نتيجة الاختلاط بين مجموعات بشرية مختلفة سواء أكانت من سكان محليين أم مجموعات وافدة » (*) وكان هذا الاختلاط لدى بعض الشعوب قويا للغاية ، مما أدى الى ظهور شعوب جديدة ، وكثيرا ما كان يتبع ذلك تغيير اسم الشعب . غير أن هذا الاختلاط حدث عند شعوب أخرى بطريقة تعسفية ومع ذلك لم يدخل تغيرات ملحوظة في كيائها .

ونجد الشعوب المقهورة عقب احتلال أراضيها والقضاء على استقلالها واضطهاد لغتها وعاداتها وتقاليدها وديانيتها تستطيع أن تذوب في الشعب الغالب . أما بالنسبة للبولجار فلم يكن هناك أساس يستدعى الحديث عن مثل هذه التغيرات ، ومن الصعب قبول ما يحلو لبعض المؤرخين الكلام عنه حول تغيير كيان الشعب البولجارى عقب التأثيرات الفينية - الأوغورية عليه ، لأن مستوى البولجار الحضارى كان عاليا ، اذ كانت لهم النظم السياسية والاجتماعية، وكانت لهم الكتابة والأدب والمدارس والأيدولوجية الرسمية أى الديانة والتقاليد التى ترسبت فى الاقتصاد والثقافة والحياة الاجتماعية ، ومن ثم فأنهم لم يتعرضوا لتأثير جيرانهم الا بنسبة ضئيلة . ولا توجد لدينا أى أدلة تؤكد ذوبان القبائل الفينية - الأوغورية التعسفى فى الشعب البولجارى لكى تحدث التغيرات الانثروبولوجية فى كيان الشعب البولجارى . ونحن بطبيعة الحال لا نستثنى بل نسلم بتأثير الشعوب المجاورة على البولجار ، لكن هذه التأثيرات كانت محلية ، ضئيلة الشأن وغير ملحوظة ، فلم تغير لغة البولجار وأسلوب حياتهم وحضارتهم وعاداتهم ومعتقداتهم ، أى لم تغير أنثروبولوجيا البولجار . ويؤكد هذا أبحاث المؤرخين وعلماء الآثار والاثنوغرافيا والانثروبولوجيا الذين عاشوا قبل وبعد الثورة (٣٦) . ويبدو أن الشعوب الفينية - الأوغورية المجاورة قد تأثرت بالشعب البولجارى أكثر ، ويؤكد هذا لغتهم وحضارتهم ، لكن

Bromley Y. V. : Etnos i etnografiya. M., 1973 s. 104.

(*)

رغم ذلك نجد المؤرخين يتركون هذا الجانب ولا يتحدثون عن ظهور شعوب جديدة كشعب « ماري » منلا أو شعب « أودومورت » أو شعوب أخرى .

ولم يستطع الغزو المغولي لأراضي البولجار والشعوب الفينية - الأوغورية أن يحدث تغييرا ملحوظا في كيان الشعب البولجاري وفي كيان شعوب ماري وأودومورت وموردفا والروس ، لأن الغزاة لم يستقروا على أراضيها ، ولم يكونوا على اتصال دائم معها ، أضف إلى ذلك شدة الاختلاف بين المغول والبولجار من حيث اللغة والعادات والحضارة والتنظيم الاجتماعي والتقاليد .

وحين زحفت جحافل المغول عبر إيران والتوقاز إلى أوروبا الشرقية وألحقت الهزيمة بالجيش الروسي - البولوفتسية (٣٧) على ضفاف نهر « قالقا » (٣٨) ، كان البولجار قد انتصروا على الكتائب المغولية التي أرسلت في خريف عام ١٢٢٣ م إلى أواسط نهر الفولجا ، وولى المغول هاربيت من بلاد البولجار . وقد حاول المغول فيما بعد التغلغل إلى مملكة « بولجار » عدة مرات ، لكنهم اضطروا إلى الانسحاب عقب اصطدامهم بمقاومة البولجار المستميتة . ولم يستطع المغول أن يتغلبوا على بولجار الفولجا إلا بعد مرور ثلاثة عشر عاما . « وقد تحققت هذه الحملة في عام ١٢٣٦ م ، حيث اشترك فيها أمراء الأسرة الملكية (أسرة جنكينز خان) التي كانت في ذلك الوقت تنقسم إلى أربعة فروع » .

ويقول جوفان (Juvein) في كتابه : « كانت الأرض تثن من أعداد الجنود الضخمة التي تجمعت على الحدود الشرقية لأراضي البولجار ، وأصيبت الحيوانات المفترسة وطيور الليل بالجنون من تكتل الجيوش » (*) . ولم تكن القوى في ذلك الوقت متساوية ، فتساقط البولجار في المعارك الضارية ، وتعرضت المدن والقرى للنهب والتخريب ، وتكبد الشعب البولجاري خسائر لا حصر لها ، لكنه لم يستسلم للهزيمة .

« وفيما بعد تم القضاء على استقلال آلان وقيبيجاق وموردفا (٣٩) وبورتاس (٤٠) ، ثم أتى الدور على أراضي الروس التي تم الاستيلاء عليها في عام ١٢٤٠ م » (**).

ولم يستسلم البولجار رغم سقوط مملكتهم ، ولم يتوقفوا عن الكفاح من أجل استقلالها ، لذلك كان المغول يشنون حملاتهم الدامية مرارا وتكرارا ، ينهبون بلادهم ويدمرونها . وفي نهاية الأمر انتصرت القوة ، ف وقعت مملكة البولجار مثلما وقعت روسيا الموسكوفية في تبعية إقطاعية للامبراطورية الذهبية .

(*) Grumm-Grimaylo G. Y. : Zapadnaya Mongoliya i Uryanhay-skiy kray. t. 2 L., 1926, s. 463.

Ibid., s., 463.

(**)

ولم يستقر المغول في مملكة « البولجار » على ضفاف نهر الفولجا ،
إذا لم تأخذ في الحسبان حملات كتائبهم التأديبية وحملات جباة الضرائب ،
ومن ثم فلا داع للحديث عن التأثير المغولي في كيان الشعب البولجاري .
وقد يكون هناك بعض التأثير الانثروبولوجي مثلما تعرضت له شعوب
أخرى فلى الامبراطورية الذهبية ، لكن ذلك لم يؤد الى تغيير ملحوظ في
كيان الفرس والجورجيين والأرمن والأوسيتيين والروس والشعوب
الفينية - الأغورية وغيرهم من الشعوب . ونستطيع أن نقول ذلك أيضا
بالنسبة للبولجار .

ان غزو المغول لأراضي مملكة البولجار وحملاتهم المتتالية عليها ،
ثم حملات الصغاليك الروس الذين كانوا يسكنون ضفاف نهر الفولجا ،
وحملات أمراء الروس قد أدت الى هجرة جزء من البولجار الى مناطق نهر
قاما الشمالية والى نهر فياتكا (٤٠) وضفاف نهر قازانكا (٤٢) ، أى الى
المناطق التى تقل فيها الكثافة السكانية ، والتي بدأ البولجار يتغلغلون
اليها قبل الغزو المغولي بزمان بعيد . وفى عام ١٤٣١ م . لم يستطع
البولجار أن يصمدوا أمام الحملة التى قام بها الروس تحت قيادة
« فيودور بوسستري » (Feodor Pestriy) ، وسقطت عاصمتهم
« بولجار » ، ولم يعد لها الكيان منذ ذلك الوقت . ومن هنا ازدادت هجرة
البولجار الى المناطق التى أشرنا اليها من قبل .

وقد اعتمد بعض المؤرخين على تلك الحقائق وحاولوا أن يضعوا نهاية
لتاريخ البولجار منذ ظهور العاصمة الجديدة التى أطلق عليها « بولجار
الجديدة » ، وهذا أول اسم لمدينة قازان . وأصبح البولجار منذ ذلك
الحين يطلق عليهم اسم « التتار » . ويبدو هذا الاتجاه بوضوح شديد عند
العالم « شبييلوفسكى » الذى يشير فى كتابه الى أنه بعد أن تم القضاء
على عاصمة البولجار بجيوش « فيودور بوسستري » فى عام ١٤٣١ م
« تكونت فى مكانها الامارة التتارية القوية الجديدة وهى اماره قازان .
وقد ضمت مساحة تلك الامارة اراضى البولجار السابقة وأراضى المنطقة
الشمالية والجنوبية والشرقية المعروفة الآن بباشكيريا ومحافظتى
« فاتكا » و « بيرم » (*) . ونجد « شبييلوفسكى » يعارض بشدة العالم
« تاتيشيف » (Tatishev) الذى استخدم اسم التتار فى أحداث عام
١٤٢٩ م . لأنه فى رأيه « لم تكن قازان فى ذلك الوقت مركزا لأراضى
البولجار » ، و « أنه يجب أن يطلق على التتار اسم البولجار قبل ظهور

(★) Shpilevskiy S.M. : Drevneyshiye goroda i drugiye bulgaro-
tatar kiye pametniki v Kazanskoy gubernii. Kazan, 1887, sfi 191.

امارة قازان التى أسسها ابن أولو - محمد « (٤٣) (*) وهكذا تحول
البولجار بارادة بعض المؤرخين فى سهولة ويسر الى شعب جديد تماما -
الى « التتار » .

لكن ماذا تغير بعد أن هاجر جزء من البولجار الى مناطق كان يسكنها
البولجار أنفسهم ، وذلك بعد أن اضطروا الى نقل عاصمتهم الى « بولجار
الجديدة » أو قازان التى بنوها على بعد ١٠٠ كم شمالى العاصمة
السابقة ؟ طبعا لم يتغير شئ على الاطلاق ! لقد بقى معظم الشعب البولجارى
فى مكانه (**) . ولم يحدث أى تغير فى لغة البولجار ، ولم تأت مكانها
لغة جديدة أى اللغة التتارية ، لأن اللغة التتارية لم يكن لها وجود فى
أواسط نهر الفولجا وما حولها ، ولم يحدث أى تغير فى الكتابة والدين
والعبادات والتقاليد والمعتقدات وأساليب الحياة وشكل الملابس والمساكن
وما يشبه ذلك . وعلى أية حال فلم يجد أحد من علماء الآثار والاثنوغرافيا
وعلم اللغة والانتروبولوجيا والنقد الفنى أية تغيرات عند المقارنة بين
حضارة مملكة البولجار وامارة قازان أى امارة التتار . ومنذ ظهور امارة
قازان توثقت العرى بين البولجار وبين شعبى مارى وأودمورت ، لكن هناك
حقائق وأدلة تؤكد أن تأثير البولجار على كلا الشعبين كان أقوى . ونجد
التوارث بين دولتى بولجار وقازان لم يتمثل فى تطابق مساحة هاتين
الدولتين اللتين كان يسكنهما البولجار وأولئك الذين أطلق عليهم اسم
التتار ، بل كان ذلك التوارث يتمثل أيضا بوضوح فى شتى فروع
الاقتصاد والحضارة لشعبى البولجار وتتار قازان ، ومنها على سبيل
المثال الفلاحة على المساحات الواسعة مع استخدام نظام التبوير ،
أو العلاقات المتطورة مع شعوب مختلفة والعلاقات التجارية داخل البلاد
التي تركزت فى حوض نهري الفولجا وقاما ، ثم التشابه الشديد فى فن
انشاء المدن وصنع التماثيل وفى النقوش التى تميز بها الشعب
البولجارى وتتار قازان بين كافة شعوب المنطقة ، وفى فن المصوغات
والزخرفة والسلاح والآلات ولوازم المعيشة الأخرى ، وأخيرا التوارث
الحضارى (الكتابة والأدب والدين) ، ثم وعى الشعب التتارى بأصوله
البولجارية ومحافظتهم على التراث الشعبى الذى يعود الى عهد البولجار ،
وتقديسهم لكثير من المدن والقرى والمقابر البولجارية (***) وتأخذ على
سبيل المثال مدينة قازان نفسها التى شيدت وكانت عامرة بالناس قبل

Ibid., s. 190

(*)

Fahrudinov R. G. : Arheologichesgiye pameinigi Voljsko- (**)
Kamskoy Bulgari i yeyo teritoriya. Kazan, 1975, s. 86.

Ibid., s. 84-85.

(***)

الغزو المغولي بمئات السنين . ويشير المؤرخ « ريتشكوف » منذ القرن الثامن عشر الميلادى الى أن انشاء مدينة قازان تم قبل وقوع البولجار تحت سيطرة المغول بمائة سنة (١) ونجد مؤرخين مثل « ناليين » (Kalinin) و « سميرنوف » (A. P. Smirnov) وآخرين بكونهم على صلة وثيقة بالآثار التاريخية للدولة بولجار وقازان ، يعززون تأسيس المدينة الى القرن الثمانى عشر الميلادى أى قبل ظهور المغول فى تلك المنطقة بما يناهز مائة عام .

لقد أكدت الأبحاث الجديدة هذا الرأى حيث نجد مؤرخين مثل « ايفانوف » و « ايونينكو » و « خاليكوف » عقب استنتاجهم لمواد علمية جديدة فى علم الآثار والباليوغرافيا (Paleography) (٢٤) قد توصلوا الى نتيجة واحدة : هى تأسيس مدينة قازان قبل الفترة المغولية (**) .

وهناك بعض المؤرخين يتخذون حادث اعتلاء أحد أمراء الامبراطورية الذهبية « أولو - محمد » عرش اماره قازان دليلا لتحويل البولجار الى التتار ، لكن اذا سلمنا بهذا المنطق لكان يجب علينا أن نطلق على كثير من شعوب آسيا الوسطى والهند اسم « التتار » ، لأن هذه البلاد كان يحكمها أيضا أمراء الامبراطورية الذهبية . ونجد هؤلاء المؤرخين يستدلون أيضا بأن « أولو - محمد » جاء الى بلاد البولجار مع ثلاثة آلاف جندى . لكننا نرد عليهم بأن قصة اعتلاء « أولو - محمد » عرش قازان ليس لها أى دليل يؤكد ذلك . وتشير المخطوطات الى أن حاكم قازان كان أحد أبنائه . أما بالنسبة الى الثلاثة آلاف جندى فخمسمائة منهم ذهبوا مع ابنى أولو - محمد وهما يعقوب وقاسم الى روسيا الموسكوفية ، ومنحت للأخير الامارة المعروفة فى التاريخ باسم الامارة القاسمية . وقد سقط من هؤلاء الثلاثة آلاف جندى ما لا يقل عن خمسمائة فى المعارك . وحتى اذا سلمنا برأى القائل باعتلاء « أولو - محمد » العرش ووجود الثلاثة آلاف جندى من سلاله التتار بجواره فهل يستطيع ذلك أن يغير كيان الشعب بأكمله ؟ بل اذا سلمنا بهذا الخبر المشكوك فى أمره لكان يجب علينا أن نطلق على روسيا الكييفية اسم الامارة الفارياجية ونطلق على سكانها اسم الفارياج (٤٥) والنورمانديين (٤٦) بعد أن جاء هناك الأمير « أوليج » مع عدد من الاسكاندينافيين الذى لا يقل عن العدد السابق ذكره ،

(*) Richkov P. : Opit Kazanshov istorii dervenysih i rednich vremen. SPb, 1767, s. 70-71.

(**) Ivanov V. V., Ionenko I. M., Halikov A. H. : Kogda Voznikla Kazan. 1974, s. 84-90.

أو نطلق عليهم اسم الامارة البولوفتسية وعلى سكانها « البولوفتسى » بحجة أن روسيا الكييفية كان يسكنها أعداد ضخمة منهم ، وكثيرا ما كان يعتلى عرشها الأمراء القبيجاق ، أضف الى ذلك العلاقات الوثيقة بين الروس والقبيجاق التي انعكست فى أنثروبولوجيا ولغة وعادات روسيا الكييفية . وهنا نتساءل : هل كان كل فرد من الثلاثة آلاف جندى ينحدر من الأصل المغولى ؟ نحن نعلم جيدا أن الغالبية العظمى من سكان الامبراطورية الذهبية كان يشكها القبيجاق ، أى شعب قريب من البولجار ثنى اللغة ، ومن المعروف أيضا أن المغول كانوا يجندون فى جيوشهم عنوة شعبانا من كل الشعوب المقهورة ومنها الروس والبولوفتسى وآخرون .

ومن هنا يتضح بطلان آراء هؤلاء المؤرخين حول تغيير كيان الشعب البولجارى حينما اعتمدوا على هذا الخبر المبالغ فيه . ويشير العالم المتخصص فى تاريخ البولجار « سميرنوف » الى أنه من الخطأ ربط تاريخ قازان باسم أولو - محمد كما يفعل بعض المؤرخين ، لأن منازل البولجار بنيت على ضفاف نهر قازانكا منذ القرن الثانى عشر الميلادى (*) .

وكان المغول على اتصال دائم ووثيق بشعوب أواسط آسيا والهند وبلاد الفرس ، وأقاموا فى هذه المناطق مئات السنين . وكان اتصالهم بتلك الشعوب أقوى بكثير من اتصالهم بشعوب أواسط نهر الفولجا ، ومع ذلك لم تتحول تلك الشعوب الى التتار ، برغم وجود محاولات لتسميتهم بهذا الاسم . وكثيرا ما كان يطلق عليها اسم التتار ورغم هذا بقيت تلك الشعوب تسمى الفرس والتادجيك (٤٧) والقرغيز (٤٨) والأوزبك (٤٩) والكازاخ (٥٠) الخ . . . ونذكر هنا حقيقة أخرى : اننا نجد كثيرا من الشعوب داخل امبراطورية المغول كانت لها صلات لغوية وحضارية بهم ، ورغم ذلك كله لم تتحول تلك الشعوب الى التتار ولم تصبح مغولا ، بل ما زال يطلق عليها « طوفين » (tuvin) (٥١) و « شور » (shor) (٥٢) و « حاقاس » (٥٣) (hakas) و « آلتائيون » (٥٤) . لقد كان التأثير المغولى لا بأس به على أنثروبولوجيا تلك الشعوب ولغاتها وعاداتها ، لكن رغم ذلك نجد أن بعض المؤرخين لم يجعلوا هذا الاستثناء الغريب الا للشعب البولجارى وحده .

ان المتخصصين فى تاريخ روسيا فى القرون الوسطى يعلمون جيدا أن بعد استيلاء الروس على اماره قازان كانت الحوليات الروسية تذكر سكانها لفترة طويلة باسم البولجار أو أهل قازان . وكان الأمراء الروس يضيفون الى ألقابهم لقب « حاكم البولجار » وليس « حاكم التتار » ، أى

Smirnov A. P. : Voljskiya bulgarī. M., 1961. s. 73. ..

أنهم لم يخلطوا بين البولجار والتتار . أما اسم التتار فقد كان الروس يطلقونه على المغول ، ثم ابتدع المدونون الرسميون للأحداث التاريخية مصطلح « المغول - التتار » الذي يشير الى جهلهم ، والذي ازدهر في الاصطلاح التاريخي وما زال يستخدم حتى اليوم .

وفي فترة ظهور اماره قازان كانت علاقات البولجار تزداد نشاطا مع الشعوب الفينية - الأوغورية وكذلك مع روسيا الموسكوفية ، لكن هذه العلاقات لم تؤد الى تغيير اللغة والانثروبولوجيا والعادات والتقاليد ، لأنها كانت تحمل في طياتها صفات اقتصادية وعسكرية وتجارية ، وبقدر قليل ثقافية . وفي هذه الفترة ربما ذاب في الشعب البولجارى جزء من شعبى المارى والأودمورت كان يسكن داخل حدود اماره قازان ، لكن لم يحدث ذلك تعسفيا ، بل كان طبيعيا وينسب ضئيلة . واذا لم يكن الأمر كذلك فمن الصعب تفسير وجود كثير من القرى لشعبى المارى والأودمورت داخل أراضى التتار حتى يومنا هذا . ومازال أهالى تلك القرى يتحدثون بلغتهم القومية ، ويحتفظون بعاداتهم وطقوسهم وثقافتهم رغم اقامتهم بجوار البولجار عصورا طويلة .

وكما قلنا من قبل كان البلغار يسكنون شمال القوقاز وسواطى بحر آزوف ونهر الدون ، وكانت لهم علاقات وثيقة مع القبجاق ، وهم من نفس المجموعة اللغوية ، ويبدو أن جزءا من أراضى القبجاق كان من ضمن مساحة دولة بلغاريا العظمى . ولم تنقطع الصلة بينهم بعد هجرة البلغار الى ضفاف نهر الفولجا ، لكن ليس هناك مجال للحديث عن تأثير القبجاق على البولجار ، لأنهما من نفس الفصيطة اللغوية ، هذا مثلما لا يستطيع تأثير شعوب روسيا البيضاء وأوكرانيا وسلوفاكيا أن يؤدي الى تغيير ملحوظ في كيان شعب قريب لها أى الشعب الروسى ، لأن هذه الشعوب أحفاد لشعب واحد ، كذلك الأمر بالنسبة للبولجار والقبجاق والقوميق (٥٥) والكازاخ والنوغاى (٥٦) والبلكار (٥٧) والقرااتشاى (٥٨) ، فهم أيضا أحفاد لشعب واحد . ولنأخذ تاريخ شعوب أخرى لنؤكد على عدم تغيير كيان البولجار فى فترتى مملكة بولجار وامارة قازان ، ولنمنع بذلك محاولات تحويلهم الى شعب جديد أى الى « التتار » .

ونأخذ على سبيل المثال تاريخ تكوين الشعب الروسى ، اذ كان تأثير البولوفتسين قويا وملحوظا فى تكوين الشعب الروسى فى فترة زوسيبا الكييفية ، كما كان هناك تأثير ضئيل الشأن من قبل الاسكاندينافيين والاعريق والأرمن ، وهذه الشعوب تختلف عن الروس بشدة فى الأصول واللغة وأساليب الحياة . وحين بدأ الروس ينتشرون فى مناطق تسكنها القبائل الفينية - الأوغورية ، ذابت معظم تلك القبائل فى الشعب

الروسي ، أما القبائل الأخرى فقد هاجرت الى الشرق والشمال . وفي فترة روسيا الموسكوفية حدث امتزاج لأعداد هائلة من القبائل الفينية - الأوغورية مع الروس ، ومنذ ذلك الوقت أصبح كيان الشعب الروسي يتشكل من عنصرين : « العنصر السلافي والعنصر الفيني - الأوغوري » (*) .

ويشير العلماء الى أن الحقائق الأنثروبولوجية والاثنوغرافية واللغوية تؤكد أن الشعب الروسي قد ورث من تلك القبائل الملامح الفزيولوجية وخاصة أساليب حياتهم وحضارتهم ، ثم تتضح آثار لغة السكان المحليين من تلك القبائل في اللغة الروسية ، أي بعبارة أخرى قد أصيب الشعب الروسي بتغيرات مهمة ، لكنها في النهاية لم تؤثر في تسمية الشعب . وقد اكتسب الروس في تلك الفترة بين شعوب أوروبا اسما جديدا هو « موسكال » أو « موسكوفيت » ، وبدأ يطلق في البلاد الأوربية على روسيا اسم « موسكوفيا » ، لكن الشعب الروسي رفض تلك التسمية ، وأخذ كلمة « روس » أساسا لتسمية بلاده بروسيا ، ولتسمية أنفسهم بالروس ، ذلك تأكيدا على أنهم ورثة حضارة روسيا الكييفية من حيث الأصول . ونفس الشيء نلاحظه عند البولجار ، فبعد أن انتقلت عاصمتهم الى مدينة قازان التي كان يسكنها البولجار أنفسهم بدأت الحوليات الروسية تطلق عليهم اسم أهل قازان أي « القازانيون » . ولم يقبل البولجار مثل الروس تسمية جديدة لهم ، واستمروا يسمون أنفسهم ببولجار . لكن بعد سقوط امارة قازان لم يستطع البولجار أن يعلنوا بالطرق الرسمية أنهم بولجار ، وأن يدافعوا عن اسمهم الحقيقي بعد أن بدأ الروس يقدمونهم أمام العالم باسم « التتار » .

وفي فترة ظهور مملكة بولجار هاجر بعض البولجار بموافقة روسيا الموسكوفية الى الأراضي الروسية . وكانوا في خدمة حكومة موسكو ، فاعتنقوا الديانة المسيحية وذاوبوا في الشعب الروسي . وقد لوحظ أيضا هجرة بعض البولجار الى الأراضي الروسية عقب استيلاء الروس على امارة قازان ، وذاب هؤلاء بدورهم في الأغلبية الروسية . ومنذ ذلك الوقت بدأت الحملة الصليبية ضد « التتار » ، وأخذ الروس يفرضون عليهم الديانة المسيحية بقوة السلاح . واستمرت تلك الحملة حتى بداية القرن العشرين . وكانت نتيجة ذلك كله أن الجزء الكبير من البولجار الذين استسلموا لهذه الحملة واعتنقوا المسيحية ، قد ذاب في الشعب الروسي . ونجد ما يناهز الربع من أسر النبلاء الروس تعود شجرة نسبهم

Helimskiy Y. : Detektivnaya lingvistika. Znaniye-sila, 1975-2, (X)
s. 2. Proishozhdeniye i etnicheskaya istoriya ruskogo naroda. Trudi instituta etnografii. A. N. SSSR, novaya seriya t. 83, 1965.

الى هؤلاء البولجار والشعوب الناطقة بالتركية التي تم تذويبها في الشعب الروسي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . ونستطيع أن نتأكد من ذلك في سهولة ويسر بمجرد القاء نظرة سريعة على كتاب الأنساب لنبلأ الروس . واذا كان الكثير منهم لم يرغب في الاعلان عن أصوله التركية ، وسموا أنفسهم بالإسماء الروسية ، فقد بقي رغم ذلك عدد لا بأس به من الأسماء التي تشير الى أصولهم التركية (*) .

ونجد في الأبحاث التي نذكرها في هامش هذه الصفحة من أسفل الكتاب ، وفي مذكرات الرجال البارزين للفترة السابقة ، وفي شجرة النسب لبعض العائلات ، أن عددا كبيرا من الكتاب والعلماء ورجال السياسة في روسيا يعود بأصولهم الى الأصول التاريخية مثل « درجاين » (Derjavin) (٥٩) و « بليخانوف » (Plehanov) (٦٠) و « كانتيمير » (Kantemir) (٦١) و « تيميريازيف » (Timiryazev) (٦٢) و « رحمانينوف » (Rahmaninov) (٦٣) و « كارامزين » (Karamzin) (٦٤) و « جريبويدوف » (Griboedov) (٦٥) و « سالتيقوف - سيدرين » (Saltikov-Shedrin) (٦٦) و « بونين » (Bunin) (٦٧) و « كوبرين » (Kuprin) (٦٨) و « تشاداييف » (Chadayev) (٦٩) و « دوستويفسكي » (Dostoyevskiy) (٧٠) و « سيولكوفسكي » (Tsiolkovskiy) (٧١) و « راديشيف » (Radishev) (٧٢) و « داشكوف » (Dashkova) (٧٣) و « ميلوكوف » (Milukov) (٧٤) و « بناييف » (Panayev) (٧٥) و « كوجوشيف » (Kugushev) (٧٦) و « ينيكييف » (Yenikeev) (٧٧) و « أوتشيف » (Utshev) (٧٨) و « تنيشيف » (Tenishev) (٧٩) و « شيشكوف » (Shishkov) (٨٠) و « شاخوفسكي » (Shahovskiy) (٨١) و « ميشيرينوف » (Mesherinov) (٨٢) و « أوروسوف » (Urusov) (٨٣) و « شيريميتيف » (Sheremetiev) (٨٤) و « ستروجانوف » (Stroganov) (٨٥) و « أراكتشيف » (Arakcheev) (٨٦) و « دافيدوف » (Davidov) (٨٧) و « جوكوفسكي »

- Kornevich Y.P. : Rodoviye nazvaniya i titluli v Rossii i sluyaniye inozemzev s russkimi, SPb, 1886.
 Zagoskin N. P. : Ocherki Organizatsii i proishojdeniya slujilogo sosloviya dopelrovskoy Rusi. Kazan, 1875.
 Kozlova K. I. : Etnografiya narodov Povoljya. M., 1964.
 Ocherki po istorii tatarskogo iskustva. — Vestnik nauchnogo obshestva tatarovedeniya. 1927-7, s. 34-61.
 Tatari srednego Povoljya i Priuralya. M., 1967.
 Ba kakov N.B. : Seriya statey o russkih familiyah turkskogo proishojdeniya. Sbornik po onomastike.
 Essays on Tatar History. New Delhi, 1968.
 Rocznik tatarskiy. t. 2, Wilno. 1935.

(Jukovskiy) (٨٨) و « شيرينسكى - شاهماتوف »
(Shirinskiy-Shahmatov) (٨٩) وآخرون .

وهناك عائلات من النبلاء الروس التى تحمل أسماء تركية - بولندية
مثل « بزاريفسكى » و « سيبوليفسكى » و « خاليتسكى » و « سولكيفيتش »
و « بوشاتسكى » و « بارانوفسكى » و « يوزيفوفيتش » و « آداموفيتش »
و « كروتشكوفسكى » وغيرهم ، أو بمعنى آخر هم هؤلاء الأتراك الذين
ظهروا فى روسيا بعد أن تم ضم بولندا بقوة السلاح الى روسيا
القيصرية (*) . ونجد بين الروس الأسماء الألمانية التى تعود بأصولها
أيضا الى الأصول التركية . وقد اكتسب حاملو هذه الأسماء القابهم
« فون بارون » فى بولندا وليتفانيا ، ومن ثم نجد القائد الفرنسى
« نابليون » قد يكون على حق حين قال عبارته المشهورة : « ابحت عن
الروسى تجده التتارى » .

ونرى فى اللغة الروسية مئات الألفاظ التى تعود بجذورها الى
الأصول التركية . وقد دخل جزء منها فى فترة ظهور مملكة بولجار على
ضفاف نهر الفولجا . ولم يكن ذلك التأثير نتيجة العلاقات الاقتصادية
والتجارية والثقافية ، بل كانت نتيجة الامتزاج لجزء من البولجار
مع الشعب الروسى . وكانت الاتصالات بين البولجار والروس وثيقة منذ
قديم الزمان . وقد انعكست تلك الاتصالات فى العادات والمناسك
والمراسم والملابس والزخرفة لكلا الشعبين . ولم تؤد هذه الاتصالات
والتأثيرات الى تغيير كيان الشعب الروسى والبولجارى ، لكنها أدت الى
اثراء ثقافة كلا الشعبين .

ونعود مرة أخرى الى تاريخ شعب آخر وقع فى بؤرة غليان الأحداث
التاريخية على مر العصور ، وهو الشعب الفارسى . كانت دولة ايران
القديمة تؤمن لفترة طويلة بتعاليم كتاب الأفيستا ، وقد تعرض الشعب
الايرانى منذ ذلك الحين لتغيرات ضخمة . وكان الاغريق القدماء يعيشون
على أراضى ايران ، وأضافوا خلال سنوات حياتهم الطويلة فى تلك البلاد
إضافات جديدة ملموسة فى الثقافة وأساليب الحياة والديانة والعادات
واللغة والأثرولوجيا للشعب الفارسى . ثم سقطت دولة ايران اثر
الفتوحات العربية التى أتت بنظام جديد يتمثل فى الديانة والثقافة
والعادات الجديدة ، مما أدى الى تغيرات ملموسة فى كيان الفرس . وفى
فترة هجرات الشعوب الضخمة استقر عدد كبير من القبائل التركية فى
ايران التى أتت بدورها بعناصر جديدة فى كيان الشعب الفارسى . ثم

(*) Mulinskiy A. : Issledovaniya proishojdeniya i sosotyaniya
litovskih tatar. Odessa, 1902.

عرفت بلاد ايران المغول والأتراك العثمانيين ، وتعرض سكانها لتأثيرات لا بأس بها . ولا يعرف الكثير أن الفرس القدامى كانوا شقرا ، ومن ذوى عيون فاتحة اللون . والآن ليس من الصعب أن نتأمل التغيرات الجذرية الملموسة التى حدثت فى كيانهم . وعلى الرغم من هذه التغيرات كلها بقى الفرس يطلق عليهم حتى الآن اسمهم القديم . والواقع أنه لم يبق من أوجه الشبه بين الفرس الذين نراهم اليوم ، وبين الفرس القدامى الا القليل . لقد تغير كيانهم لكن بقى اسمهم . ولا نرى فى ذلك شيئا غريبا ، بل على العكس نجد محافظة الشعب على اسمه تساعد على فهم تاريخه الصحيح وتشير رغم كل هذه التغيرات الى أنهم ورثة الحضارة الفارسية ، ما زالوا فرسا حتى الآن .

أما بالنسبة الى اسم البولجار فحدث فى تاريخهم عكس ذلك ، أى أننا لم نجد عندهم طوفان التغيرات والامتزاجات مثلما وجدنا فى تاريخ الفرس ، ولم تحدث التأثيرات الملموسة فى كيانهم مثلما حدث للشعب الروسى ، فالبولجار كانوا وما زالوا يسكنون نفس الأراضى لفترة تزيد عن ألف سنة على أقل التقدير ، لكن رغم ذلك تغير اسمهم الى التتار ، وقد فرض عليهم هذا الاسم عنوة وقسرا من ممثلى الشعوب الأخرى ، أو بمعنى أدق من زعماء المذاهب الايديولوجية الرسمية لتلك الشعوب .

من تاريخ أسماء الشعوب

« اثنونيم » (E'hnanim) مصطلح يفيد معنى اسم العشيرة أو القبيلة أو الشعب أو القومية ، ويتكون من كلمتين : « اثنو » بمعنى الشعب و « نيم » بمعنى الاسم (٩٠) . ويعكس كل اثنونيم قدرا قليلا من صفات الشعوب ، ولكنها أحيانا ليست حقيقية أو منصفة ، فالأمر يتعلق بهؤلاء الذين أطلقوا هذا الاسم ، أو بمعنى آخر هل كان هذا الاسم من اختيار الشعب نفسه أم أنه فرض عليه قسرا ؟

ويرى بعض العلماء أن الاسم الذى يختاره الشعب ، هو اسم حقيقى ويحتوى على بعض الحقائق التى تخص الشعب . ولم يتكون هذا الرأى بطريقة عشوائية أى من مجرد الاسم نفسه ، بل اعتمد على أساس التعرف على الشعوب وتواريخها . ويتم تحديد الاسم الحقيقى لأى شعب من صفات معينة له ، أى من اللغة والعادات والمناسك والاعتقادات وأساليب الحياة والثقافة وما يشبه ذلك . لكن اسم الشعب لا يعكس دائما صورة حقيقية له ، ومن ناحية أخرى لا تلعب صفاته المعروفة دورا ملموسا فى تحديد اسمه ، ونجد أحيانا نفس الصفات تتوافر فى شعوب بعيدة عن بعضها ومختلفة عن بعضها تماما . وتعد اللغة من أهم سمات الشعب ، لكن تصنيف الشعوب على الأسس اللغوية ليس مقياسا للصواب ، فلا داع أن نتكلم عن شعوب مختلفة تتحدث الانجليزية والفرنسية والاسبانية ، لأن الأمر هنا واضح لكل الناس وإذا أخذنا على سبيل المثال الألمان والنمساويين الذين يتحدثون لغة واحدة ، نجدهم يختلفون عن بعضهم باختيار كلا الشعبين اسما لنفسه . وهناك شعوب على العكس من ذلك تماما ، فالنرويج مثلا يتحدثون لغتين ، وعلى الرغم من هذا لم يصبحوا شعبين مختلفين ، بل ما زالوا شعبا واحدا . ونجد أحيانا عند شعوب مختلفة فى اللغة كثيرا من السمات المشتركة فى أسلوب الحياة وحتى فى الثقافة . ويتراءى ذلك بوضوح عند التادجيك والأوزبك وبعض الشعوب الأخرى فى آسيا الوسطى ، فهذه السمات المشتركة تعود الى العوامل الجغرافية . ومن ناحية أخرى نجد العادات والمناسك والاعتقادات وأساليب الحياة لا تكون دائما مشتركة بين أفراد الشعب نفسه ، فيختلف

مثلا شكل الملابس والمسكن واسلوب الحياة عند الروس الذين يسكنون شواطئ البحار ، وروس نهر الدون الذين يطلق عليهم اسم « كازاك » ، كما يوجد بينهم الاختلاف اللغوي . ثم نجد أساليب الحياة للطبقة الارستقراطية الروسية وعاداتها وملابسها تختلف بشدة عن طبقة العمال والفلاحين والموظفين الصغار ، بالإضافة الى أن هذه الطبقة الارستقراطية كانت تتعالى على اللغة الروسية ، لكن رغم ذلك كله لم تصبح هذه المجموعات البشرية شعوبا منفصلة أو مستقلة عن بعضها .

وهكذا نرى أن عناصر ثقافة الشعب المختلفة تترابط معا بطرق شتى . ونجد تمييز الشعب لغويا وارتباط هذه اللغة بالثقافة الروحية والمادية يحتويان دائما على خصائص معينة . ومن هنا اقترح بعض علماء الاثنوغرافيا أخذين في الحسبان هذه الخصائص والتناقضات الظاهرية ، أنه « من الأفضل أن يتم تصنيف الشعوب وفق تقييم كل شعب لذاته » (*) . ويعارض العالم « شيننيكوف » ذلك الرأي بأن هناك بعض الأشخاص أو المجموعات البشرية ينسبون أنفسهم بمحض ارادتهم الى شعوب معينة ، وهذا يتناقض مع الرأي السابق ذكره . ويستطيع أى انسان أو مجموعة من الناس الانتساب الى أى شعب ، لكنهم لا يستطيعون أن يحملوا خصائص هذا الشعب الغريب عنهم روحيا وجسديا . ومن ثم فإن هذا الرأي حول تحديد هوية الشعوب قد يؤدي الى عواقب وخيمة عند دراسة تاريخ شعب معين .

وفى الأزمنة الماضية عاشت القبائل فى عزلة تامة ولم تتصل بأناس يختلفون عنها ، ولم يكن لهذه القبائل أسماء لأنها لم تكن فى حاجة اليها . ومنذ فجر الانسانية وقبل ظهور الطبقة ، كان النظام القبلى يقسم الناس الى « الأقرباء » وهم من ذوى القربى وأفراد القبيلة ، و « الغرباء » . وكان كل غريب يعد منافسا أو عدوا (**) . وإذا توثقت بين « الغرباء » الأواصر السلمية أصبحوا « أصدقاء » ، ومن هنا نجد بعض المتخصصين يشيرون الى أن التسميات الأولى للمجموعات البشرية تم اشتقاقها من هذه الصفات أى « الغريب » ، و « العدو » و « الصديق » وما الى ذلك .

وفى هذه الأزمنة الغابرة بدأ يظهر أيضا اثنونيم جديد من كلمة انسان ومشتقاتها . وكان الناس يسألون اذا التقوا بالغريب : من أنت ؟

(*) Shennikov A.A. : O ponyatii etnograficheskoy kompleks. — V sb. : Doklady otdeleniy i komissiy Geograficheskogo obshchestva SSSR Vip. 3, Etnografiya, L., 1967, s. 40.

(**) Belyavskiy V. A. : Etnos v drevnem mire. — V sb. : Doklady otdeleniy i komissiy. s. 19.

وكان الغريب الذي لا يفهم لغتهم ، يجيب بأنه انسان وليس من الوحوش .
ومن هنا تبدأ هذه الكلمة غير المفهومة تتناقل بينهم كاسم لذلك الغريب
أو كاسم للشعب الذي ينتمى اليه .

ونجد أسماء مثل « ترك » و « آر » (اودمورت اليوم)
و « نينتسي » (٩١) و « اسكيمو » (٩٢) و « دويتش » (٩٣) وما الى
ذلك تعود بجذورها الى كلمة « الانسان » و « الناس » و « الناس
الحقيقيون » (*) ونستطيع هنا أن نضرب مثالا آخر لنرى كيف تتكون
أسماء الشعوب على هذا الأساس . لقد انقرض كثير من قبائل الهنود
الحمر بعد أن اتجه الأوروبيون الى فتح العالم الجديد فى أمريكا . وفى
نهاية القرن التاسع عشر وجد البيض فى ولاية كاليفورنيا هديا ساقه
الجوع الى احدى السلخانات ، فأتضح أنه آخر من تبقى من القبيلة الهندية
التي قضى عليها المستعمرون . وحين سئل الهندي : من أنت ؟ لم يفهم
لغة البيض ، فأجاب قائلا بأنه « ايشي » أى الانسان فى لغة قبيلته .
ونجد عالم الاثنوغرافيا المشهور « كريبر » الذى كرس حياته لدراسة
حضارة الهنود الحمر ، يؤكد فيما بعد أن ذلك الهندي ينتسب بجذوره
ولغته الى قبيلة « يانا » (**).

وتعود أسماء بعض الشعوب بجذورها الى المظهر الخارجى للانسان
أو الى شكل الملابس ، فنجد اسم « كلوبوك السود » فى تاريخ
روسيا الكيفية هى ترجمة حرفية لكلمة تركية « قره قلباق » (٩٤) ،
اذ كان من عاداتهم ارتداء غطاء الرأس أسود اللون . وقد أطلق الأوروبيون
على قبائل بعض الجزر اسم « بابو أس » أى ذوى الشعر المجعد . أما اسم
« الأثيوبيون » فيعنى ذوى الوجوه السمراء .

وتتكون أسماء الشعوب من مصادر مختلفة ، فهناك الأسماء التي
تفيد الحرفة أو مكان الإقامة أو الطباع أو رمز القبيلة وما الى ذلك . وعلى
سبيل المثال اكتسبت احدى قبائل الهنود الحمر اسم « بحيل » من كلمة
القواسين ، أما اسم قبيلة « تحتة جي » فى تركيا فتعود بجذورها الى طبيعة
العمل أى تحضير الأخشاب ، ويفيد اسم « الأسقوثى » تربية المواشى .
واسم « دريجوفيتش » - ساكنى الغابات ، واسم قبيلة « نادجو » من
شعوب كاليمنتان (٩٥) يعنى ساكنى الجبال . وقد أطلق على الزوج
فى منطقة « قالحاي » بافريقيا اسم « بوشمان » الذى يعود بجذوره الى

Nikonov V.A. : Etnonimiya. — V sb. Etnonimi. M., 1970, (★)
s. 15-A.

Kreber T. : Ishi v dvuch mirah. Biografiya poslednego
predstaviteleya indeyskogo plemeni Yana. M., 1970. (★★)

اللغة الانجليزية بمعنى ناس الشجيرات أو الناس الذين يسكنون بين الشجيرات . واكتسبت قبيلة الهنود الحمر اسم « اتستيك » من الطقوس لآلهتهم ، وهى عبارة عن الثعابين المظلمة باللون الأبيض ، فكلمة « آق » فى لغة هؤلاء تعنى الأبيض وكلمة « تسيلان » تعنى الثعبان ، ومن ثم اشتق الأوروبيون من هاتين الكلمتين اسم « اتستيك » . وهناك أسماء بعض الشعوب تعود الى اسم قائد القبيلة أو الى اسم المكان .

وقد ارتبطت بعض الأسماء بالمصادر الايديولوجية ، فمثلا اكتسبت قبائل جزر غينيا الجديد من المبشرين الأوروبيين اسم « ناماوا » أى الأغبياء . لأنها رفضت اعتناق الديانة المسيحية التى كانت من وجهة نظر المبشرين أكبر نعمة للبشرية .

ومن المعتاد اكتساب الشعوب والقبائل أسماءها من شعوب أخرى ، مع ذلك لم تتحرر بعض الأسماء من عوامل الصدفة والأحكام الذاتية المسبقة . وهناك بعض التسميات التى تحولت الى أسماء الشعوب ، قد قبلت كالأسماء الحقيقية لها ، وهناك تسميات فرضت من الخارج ورفضتها الشعوب ، بعد أن رأت فيها اهانة لها .

وكثيرا ما نجد فى تاريخ أسماء الشعوب شعبا معروفا بأسماء مختلفة بسبب نقص المعلومات عنه ، ويحدث ذلك أيضا حينما تطلق شعوب مختلفة على شعب ما أسماء مختلفة . وعلى سبيل المثال يطلق عامة الناس من الأتراك على الروس حتى الآن اسم « كازاك » ، لأن اتصالهم الغالب كان بهذا الجزء من الشعب الروسى ، أما الشعب الكاريلى (٩٦) فيطلق على الروس اسم « كاريال » .

وكانت روسيا الكييفية تطلق على الأتراك (القبجاق) اسم « بولوفتسى » و « تورك » ، أما أوربا فكانت تسميهم « قومان » ، وأطلق عليهم الجيران الشرقيون اسم « قبجاق » . ونجد فى التاريخ شعوبا يطلق عليها اسمين : كالشعب الجورجى المعروف بـ « جروزين » و « جورجيين » .

ان تاريخ أسماء الشعوب مادة صعبة للغاية ، اذ لا يوجد حتى الآن بحث علمى مفصل حول أسماء الشعوب ، مما يشكل صعوبات غير قليلة فى دراسة أصول بعض الشعوب وتواريخها ، وكثيرا ما يؤدى الى أحكام متضاربة ، بالإضافة الى أنه لا يوجد حتى وقتنا الحاضر تصنيف لأنواع الاثنونيم ، مما يقف حجر عثرة فى اعداد بيان علمى لأسماء الشعوب نفسها . ونجد أول محاولة فى علم الاثنونيميا يقدمها « تشلينوف » (*)

Chlenov M. A. : O nekotorih indoneziyskih etnonimah. Sb: (*)
M., 1970. s. 99-100.

الذى يقترح تقسيم الأسماء الى مجموعتين : الأسماء الحقيقية والأسماء المستعارة . ويدخل المؤلف فى المجموعة الأخيرة التسميات التى تعود الى السمة الجغرافية (سكان منطقة معينة : كالافارقة والآسيويين وما الى ذلك) أو السمة الانثروبولوجية (الزنوج ، البيض ، الحمر) أو الديانة (المسلمون ، المسيحيون ٠٠٠٠) أو التسمية التاريخية - الحضارية (على أساس التمييز الحضارى مثل البرابرة والفور وما الى ذلك) أو التسمية الاجتماعية - السياسية (التكتلات البشرية فى مجموعات سياسية ، أو اجتماعية وليست عرقية ، كاسم الاسقوثيين مثلا) أو التسمية الوهمية (التكتلات التى ليس لها وجود فى الحقيقة كاسم انتشار الذى أطلق على كل سكان سيبيريا والشرق الأقصى) (*) .

وتنقسم الأسماء الحقيقية وفق تصنيف « تشلينوف » الى الأنواع الثلاثة : « ميكرو اثنونيم » (أى الأسماء التى تعود الى المجموعات الاثنوغرافية لشعب واحد) و « الاثنونيم الأصلى » (أى اسم الشعب كله) و « ماكرو اثنونيم » (أى تكتلات الشعوب الضخمة مثل السلاف والترك والعرب وما الى ذلك) .

ولم يذكر هذا التصنيف كل أنواع الاثنونيم ، والمؤلف نفسه يعترف بهذا ، لكن ذلك التمييز بين أسماء الشعوب يعد دراسة جيدة تقدم بعض التوضيحات فى قضية معقدة ، وهى دراسة تاريخ أسماء الشعوب ودورها فى تحديد أصول الشعوب وجنورها .

تسمية « التتار » واسم « البولجار »

كثيرا ما يؤدي اختلاف أنواع الاثنونيم الى اطلاق نفس الاسم على شعوب من أجناس مختلفة ، أو النظر الى مجموعات صغيرة لشعب واحد على أنها شعوب مستقلة قائمة بذاتها . ونجد هذا الخطأ بوضوح في اسم التتار . وقد قلنا من قبل ان تسمية شعوب مختلفة باسم واحد تشير الى أن هؤلاء الذين أطلقوا هذا الاسم ، يجهلون لغة هذه الشعوب بثقافتها وتاريخها . وهناك أسماء وهمية تتعلق بموقف « المبشر » المتعمد ، وتكون أسبابها في هذه الحالة سياسية أو ايدولوجية .

وكان الأتراك يطلقون على كل الأوربيين اسم الافرنج لأنهم احتكوا لأول مرة بالفرنسيين ، ومن ثم أطلقوا هذا الاسم على الألمان والانجليز وباقي شعوب أوربا . وكان كولومبوس وفيسبوتشي يبحثان عن الهند فاكتشفا أمريكا ، وكان في اعتقادهما أنها أراضى الهند ، ومن هنا أطلق على كل سكان « العالم الجديد » اسم « الهنود » الذي تغير فيما بعد الى « الهنود الحمر » . ويختلف السكان الأصليون من شعوب أمريكا في اللغة وأساليب الحياة ، كما يوجد بينهم الاختلاف الانثربولوجي ، والشئ الوحيد الذي يشترك فيه هؤلاء الناس أنهم يسكنون قارة واحدة ، ومن ثم يعد اسم الهنود الذي أطلق عليهم ، اسما مستعارا ، ظهر لمجرد تحديد المنطقة الجغرافية ، ويجب أن ينسب هذا الاسم وفق تعريف «تشلينوف» الى الأسماء الانثربولوجية المستعارة .

وكان العرب المسلمون يطلقون على الشعوب المسيحية اسم « الكفرة » ، أما الروس فكانوا يسمون كل شعوب أوربا الغربية «نيمتسي» أن الخرّس ، أو شعوبا تتحدث لغات غير مفهومة . وبطبيعة الحال يؤدي استخدام الأسماء المستعارة (غير الحقيقية) الى صعوبة فهم أصول شعوب مختلفة وتواريخها . وفي الوقت نفسه يؤدي استخدام ميكرو اثنونيم وماكرو اثنونيم الى كثير من المشاكل والأخطاء والتعقيدات عند عرض أصول وتاريخ بعض الشعوب .

وفي أيامنا هذه نجد بعض الشعوب تنقسم الى قبائل وعشائر ومجموعات عرقية ، لكن هذه الظاهرة ليست قاعدة عامة ، فالتقسيم

القبائل لم يكن موجودا عند الأسبان والفرنسيين والايطاليين والانجليز والأتراك العثمانيين والروس والأوكرانيين والاغريق (فيما عدا ايللين) (*). ونستطيع أن نقول نفس الشيء بالنسبة للبلغار . لقد تم ادماج القبائل والعشائر البلغارية في شعب واحد قبل أن يهاجر جزء منهم الى أواسط نهر الفولجا ، فكان تاريخهم المديد المليء بالأحداث وتنظيمهم العسكري وتوحيدهم في دولة واحدة أى في دولة بلغاريا العظمى عاملا مساعدا لهذا . ولم يكن الاختلاف بين العشائر والقبائل البلغارية واضحا في فترة انتقالهم الى نهري الدانوب والفولجا . وهذه الفترة مهمة للغاية ويجب أن تؤخذ في الحسبان عند تحديد هوية البولجار . ومن هنا نستطيع أيضا تفسير ثبات كيان الشعب البولجاري عقب هجرته الى أواسط نهر الفولجا ، وهذا ما أشار اليه بانصاف الأستاذ الدكتور خاليكوف .

وما زالت التقسيمات القبلية موجودة حتى الآن عند بعض الشعوب ، ونرى ذلك عند الباشكير (٩٧) مثلا ، أما التقسيمات القبلية عند الكازاخ التي بقيت أيضا لفترة طويلة ، فتعد في رايانا مرحلة ثانية لها ، إذ لم تكن هذه التقسيمات موجودة عند الجزء الأكبر من سلف الكازاخ من « دشت - قبقاق » (٩٨) .

واذا سجلت أسماء بعض قبائل بولجار الفولجا في الفترة المبكرة مثل « السوفار » و « البيليار » ، الا أنها أسماء قد تكون مجرد أصداء الماضي التي لم يكن لها دور يذكر في فترة هجرتهم الى ضفاف نهر الفولجا . وقد يكون ذلك لرغبة بعض الجماعات في استيطان تلك الأراضي التي تتصل بذكرى قبائل قديمة وقريبة لها . وهذه الظاهرة طبيعية ، إذ نرى في أيامنا هذه الناس حين يسافرون للعمل في بناء المشروعات الضخمة ، يحاولون أن يكونوا أقرب في مجال العمل أو محل السكن لهؤلاء الذين جاءوا من نفس البلد أو المنطقة .

وهناك أمثلة غير قليلة حيث نجد « التاريخ يقوم بتكوين الشعوب من قبائل قريبة أو بعيدة عن بعضها تماما ، والحفاظ عليها . وقد يكون التاريخ مشتركا في حياة شعبين أو ثلاثة ، وقد يكون مختلفا لدى جزءين من شعب واحد . وعلى سبيل المثال نجد أن « الأنجلوساكسون » و « الكيلت من أويل » تم توحيدهم في القرن الثالث عشر الميلادي ، لكن كلا الشعبين لم يندمجا في شعب واحد . ومن ناحية أخرى نجد مصير الأرمن مختلفا ، إذ تم ضم الجزء الشرقي منهم الى ايران منذ القرن

(*) Gumilev L.N : O termine etnos. sb : Dokladi otdeleniya i komissiy geograficheskogo obshestva SSSR. Vip. 3. Etnografiya. L., 1967. s. 11.

الثالث ، وارتبط الجزء الغربي منهم منذ ذلك الحين ببيزنطة ، لكن وحدة الشعب لم تنهر » (*) وهنا نتساءل : ما تفسير مثل هذه الظاهرة في تاريخ بعض الشعوب ؟ ألم تكن صلابة الشعب الأرمني التي تكونت منذ قديم الزمان ، عاملا مهما في الحفاظ على وحدة الشعب ، مما جعل اختلاف مصير بعض أجزائه عاجزا عن هدمها ؟ لقد أصبحت قوة الترابط بين أجزاء ذلك الشعب أقوى وأشد من تأثير الحضارة الفارسية والبيزنطية عليها . ولا شك في أن هذه الصلابة تستمد جذورها من المستوى الراقى لحضارة الشعب ومن عاداته وتقاليده وعوامل رئيسية أخرى . ونجد أن « الأنجلوساكسون » و « الكيلت من أويل » لم يكونوا شعبا واحدا رغم وحدة مصيرهم التاريخي الذي امتد ما يقرب من سبعمائة عام . أما السبب فهو أن كلا من الشعبين قد تم تكوينه وتشكيله نهائيا قبل فترة دخوله في اتحاد واحد . وهذا دليل قوى على أن أى شعب إذا تم تكوينه وتشكيله نهائيا ، وبلغ مستوى عاليا من الحضارة ، يصبح من الصعب أن يتعرض للتدويب . ونستطيع أن نقول هذا أيضا بالنسبة للبולجار ونجيب على السؤال المطروح : لماذا لم يتعرض الشعب البولجارى للتغيرات الملموسة ؟

ان شعوب « ماري » و « تشوفاش » و « باشكير » و « اودمورت » رغم وحدة مصيرها التاريخي أو تعرضها للغزو المغولي ، وتعايشها في نطاق دولة واحدة منذ قديم الزمان ، ورغم الصلات الاقتصادية الوثيقة بينها والتأثيرات الحضارية المتبادلة ، لم تندمج في شعب واحد ، ولم تذب في شعوب أخرى . والجدير بالذكر هنا نظرية « يريميف » الذي يزعم أن كثيرا من شعوب آسيا الصغرى والقوقاز (اذا سلمنا برأيه شعوب أواسط نهر الفولجا) تعرضت للتريك ، لأن « اللغة التركية تعد سهلة الاستيعاب لشعوب تتحدث لغات أخرى ، فاللغة التركية بسيطة من الناحية الصوتية ، والنحو التركي لا يشكل صعوبة خاصة في لغة عامة الناس ولا يوجد في التركية تقسيم الأسماء إلى المؤنث والمذكر المحايد ، ويتحول المفرد إلى الجمع ببساطة شديدة دون أية استثناءات من القواعد الأساسية ، كما لا يوجد فيها الأفعال غير القياسية . أما تصريف الأفعال فبسيط للغاية ، إذ لم تتغير المادة الأصلية لأية كلمة . ولا يوجد صعوبة في تكوين الكلمات » (**).

ونحن نوافق تماما على تقييم يريميف لسهولة التركية وكمالها ، بل يمكننا أن نضيف إلى ما ذكره عددا من مزاياها وهي : عدم وجود حروف الجر فيها ، وتكوين الكلمات بواسطة اللواحق ، والتوافق الصوتي

Ibid., s. 10.

Yeremeev D. Y. : Etnogez turok. M. 1971. s. 233.

(*)

(**)

فى المقاطع وما يشبه ذلك . ومن المحتمل أن هذه الأسباب قد جعلت بعض الشعوب تستوعب إحدى لهجات اللغة التركية بسهولة . وتأخذ على سبيل المثال جزءا من الاغريق والأرمن الذين استوطنوا البحر الأسود . لقد أصبحت اللغة التركية عندهم لغة الأدب ولغة الطقوس الدينية والعلاقات الدبلوماسية (يوجد حتى الآن فى جنوب أوكرانيا الاغريق الذين يتحدثون التركية) ، ولكن هؤلاء الاغريق والأرمن لم يتحولوا الى الأتراك أو القباچاق ، ولم تتغير هوية كلا الشعبين بثقافتهما وعاداتهما واعتقاداتهما ، فلم يجعلهما استيعاب اللغة التركية أتراكا .

وإذا وجدت اللغة التركية انتشارا واسعا بين الشعوب وأدت الى تشريك شعوب آسيا الصغرى والقوقاز كما يدعى يريميف ، فلماذا لم تغير هذه «الشعوب المتركة» (*) عاداتها واعتقاداتها وثقافتها وتقاليدها ؟ وإذا غير الاغريق والأرمن لغتهم الى التركية فى المناطق السابق ذكرهما فلماذا لم يصبحوا أتراكا ؟ ثم لماذا لم تنتقل هذه اللغة « البسيطة وسهلة الاستعمال » الى الفرس والجرجيين والساق (٩٩) والليزجين (١٠٠) والكباردين (١٠١) وشعوب أخرى ؟ ولماذا لم تنتشر اللغة التركية الا فى مناطق محددة بالقوقاز ؟

ويقول يريميف فى بحث آخر ان فترة الغزوات السلجوقية التى امتدت بين القرن التاسع والثانى عشر الميلاديين ، تحولت بعض القبائل والشعوب التركية فى آسيا الصغرى الى الأكراد ، أى أنها اندمجت وذابت فى الشعب الكردى بعد أن أخذت منه لغته وعاداته وطقوسه (**) . أمعقول أن يذوب الشعب الغازى الغالب فى الشعب الكردى المغلوب والمقهور ؟ وهكذا نرى تناقضا واضحا بين نظرية يريميف التى أشرنا اليها من قبل ، وادعائه الأخير حول ذوبان السلاجقة فى الأكراد . ونحن هنا لا نريد الا اشارة الى بطلان نظرية يريميف حول تشريك شعوب آسيا الصغرى والقوقاز ، وأن مثل هذه الحلول الساذجة فى المسائل العلمية لم تستطع أن تقنع المؤرخين وعلماء اللغة . ونجد حتى فى آرائه تجاه نفس المسألة تناقضا يجافى الصواب .

ولا يعرف التاريخ ظهور لغة جديدة بصورة مطلقة فى مناطق تسيطر فيها لغة واحدة ، وانتصار اللغة على الأخرى هو نتيجة الصراع الذى يستمر قرونا طويلة . وقد يؤدى انتصار شعب غريب فى اللغة

(*) الشعوب المتركة : ما هذه الشعوب ؟ لا يجيب « يريميف » على هذا السؤال .

(**) Yermeev D.Y. : K semantike turkskoy etnonimii. V. sb. (**) Etnonimi. M., 1970. s. 140-141.

الى انتصار لغته ، لكن هذه الظاهرة ليست عامة ، لأن التاريخ يعرف أمثلة كثيرة حيث انتصرت لغة الشعوب المقهورة . ويرتبط هذا بمستوى الشعب الحضارى ومدى ترابط أفراده ، اذ ينحنى أمامه حتى تفوق الكثافة السكانية للشعب المنتصر . وعلى سبيل المثال نجد اللغة المغولية وهى لغة الشعب المنتصر ، لم تصبح لغة لأحد الشعوب المقهورة ، كما لم تصبح لغة الاغريق القديمة لغة شعوب امبراطورية اسكندر الأكبر ، ولم تحل اللغة التركية « البسيطة والسهلة » محل لغة شعوب أخرى فى الامبراطورية العثمانية .

ونعود مرة أخرى الى تاريخ بولجار الفولجا وامارة قازان . والمعروف أن امارة قازان لم تظهر بسبب غزو التتار أو شعوب اسطورية أخرى لا وجود لها ، على أراضى البولجار ، والقضاء عليهم وعلى حضارتهم ولغتهم وديانتهم واعتقاداتهم واسلوب حياتهم ، ولم تتحول لغة البولجار الى لغة المنتصرين الروس حتى بعد أن فاق عددهم مع مرور الوقت عدد البولجار أنفسهم . لقد تعرضت اللغة البولجارية مثل أية لغة أخرى للتغيير وفق ناموس التطور الطبيعى ، وخاصة بعد تأثر لغة الشعوب الناطقة بالتركية القريبة لها ، مما أدى الى اثناء المفردات اللغوية ، كما تعرضت لغة البولجار مثل كل اللهجات التركية لتأثير قوى من اللغة العربية ولبعض التأثير من الفارسية والروسية ، لكن هذه التأثيرات لم تؤد الى ظهور قواعد نحوية جديدة أو الى تغيير النظام الصوتى فى اللغة ، بل ساعدت على اثناء اللغة كما أشرنا اليه من قبل . وهذه الظاهرة طبيعية بل ضرورية ، لأنها تؤدى الى تطور اللغة أى اثرائها بمفاهيم جديدة .

وعند دراسة تاريخ تطور اللغات لا بد من الأخذ فى الحسبان الخصائص لبعض اللغات وصفاتها المميزة ، ثم مدى ثباتها أو ضعفها أمام التأثيرات المختلفة . ونجد فى علم اللغات الهندية - الأوربية نظرية تقول ان مفردات أى لغة تتغير بصورة مطلقة خلال ألفى عام . لكن هذه النظرية قد تنطبق على اللغات الهندية - الأوربية ، لكنها لا تنطبق على كل لغات العالم ، لأنها تتجاهل خصائص المجموعات اللغوية الأخرى . ويشير سليمانوف الى أن علماء اللغات الهندية - الأوربية طبقوا هذه النظرية « على كافة لغات العالم بغض النظر عن خصائصها » ويتضح بطلان هذه النظرية عند مقارنة اللغة التركية بتلك اللغات « (*) »

واذا كانت اللغات الهندية - الأوربية قد تغيرت فى مفرداتها وصرفها فى فترة قصيرة وبصورة جذرية ، نجد اللغة التركية بكافة لهجاتها لم تتعرض للتغيرات الجذرية فى الفترة نفسها . وسبب هذا يعود فى رأينا

الى أن اللغة التركية قد بلغت مستوى راقيا في تطور نظامها النحوي ،
اذ تم تكوين قواعدها النحوية التي لا تعرف الاستثناءات ، وتبلور نظام
اللغة وقواعدها . واللغة التركية لغة لصقية وتختلف عن اللغات الهندية -
الأوربية ، فلا يوجد فيها حروف الجر ، ولا تتغير المادة الأصلية للكلمة ،
ولا تتغير اللواحق ، و تتبع أصواتها قانون التوافق الصوتي ، أما النبر
في كلماتها فتأبث دائما . والمعروف أنه كلما كثرت الصعوبات في
اللغة كثر معها عدد الاستثناءات ، وتصبح اللغة في حاجة أشد الى تهذيب
وتغيير .

ونحن لا ننسئهمش أمام اكتشاف سليمانوف حول العناصر التركية
في لغة شومر ، وهي قريبة للغاية من مفردات التركية الحديثة ، لأننا
كنا مستعدين منذ وقت طويل لمثل هذا الاكتشاف ، اذ أن مجال أبحاثنا
تقريبا واحد . لقد اكتشفنا أعدادا ضخمة من الألفاظ التركية في لغة
الهنود الحمر في أمريكا ، ووجدنا أن الكلمات التركية في لغة قبائل
الهنود الحمر « سيوداكوتا » و « مايا » و « اينك » و « أتستيك » في
أمريكا متشابهة ومطابقة للتركية الحديثة شكلا ومضمونا ، فمنها مفردات
تعود الى عالم الحيوان ، ومنها الأسماء الجغرافية ، والمفردات المستخدمة
لأفراد العائلة وذوى القربى ، ومنها الأفعال وما الى ذلك . بالإضافة الى
أن هذا التطابق بين تلك اللغات تم اكتشافه في قواعد النحو وطريقة
تكوين الكلمة ، فضلا عما تميزت به هذه اللغات من التوافق الصوتي
وتكوين الكلمة بواسطة اللواحق .

واذا أخذنا في الحسبان أن استيطان أمريكا تم على أقل التقدير
منذ عشرة آلاف سنة (هناك نظريات تقول منذ ٢٥ - ٥٠ ألف سنة ،
وأخرى تقول منذ مائة ألف سنة) لأوقعنا صلافة اللغة التركية وتعرضها
للتغيير الطفيف في حيرة شديدة ، وخاصة بعد أن قورنت باللغات
الهندية - الأوربية . فهذا أشبه بالسلاح الذي تطول مدة خدمته ولا يتعرض
للتغيير كلما استكمل جودته وكان مريحا للاستعمال .

وفي ضوء الحديث السابق نريد أن نشير الى حقيقة أخرى ، وهي
أن ما بقى من الآثار التركية المكتوبة منذ القرن التاسع الى الثالث عشر
الميلادي لم تختلف كثيرا عن التركية الحديثة . وعلى سبيل المثال نجد في
« ديوان لغات الترك » لمحمود القشغري الذي يعود بتاريخه الى عام
١٠٧٢ م ، نماذج للغة البولجار مفهومة لدى تثار اليوم دون أى ترجمة .
وهناك مثال آخر وهو كتاب « قوانين قومانيكوس » الذي ألفه المبشرون
في عام ١٣٠٣ م باللغة القبجاقية ، وهذه اللغة يفهمها تثار اليوم أيضا
بسهولة . وقد استنتج العالم الأكاديمي « رادلوف » من الأبحاث أن لغة

ذلك الأثر أقرب الى لغة تترار مدينة قازان ، وأن اللغة التتارية الحديثة لم تتغير كثيرا منذ ذلك الوقت (*) .
أما الآثار الأدبية التي كتبت بأسلوب أدبي رفيع ويعود تاريخها الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، فلا يستطيع القارىء التتارى أن يقرأها اليوم بلا ترجمة لكثرة استخدامها للألفاظ العربية . لكن بعد أن تمت تنقية اللغة التتارية من الألفاظ الدخيلة أصبحت هذه اللغة أقرب الى لغة الآثار التركية المكتوبة التي تعود بتاريخها الى بداية القرون الوسطى . وهكذا نرى أن غلبة الألفاظ العربية والفارسية فى لغة البولجار لم تستطع أن تغير متن اللغة ونظامها النحوى ، وهذا مرتبط بلا شك بخصائص اللغة التركية التي سبق ذكرها .

ومن ناحية أخرى اذا أخذنا المؤلفات القديمة للشعوب الهندية - الأوربية ، وعلى سبيل المثال مسرحيات شكسبير، وجدنا المخارج الصوتية فى لغة شكسبير يفهمها الانجليز بصعوبة بالغة . ومن هنا نستطيع أن نرى كيف تغيرت المخارج الصوتية فى اللغة الانجليزية منذ القرن السابع عشر . وقد اضطر الانجليز من أجل توصيل لغة تلك الفترة للمشاهد الانجليزى أن يلتزموا بقواعدها الاملائية ، وهى بعيدة عن النطق الحديث .
واذا أخذنا الأثر الأدبى الروسى القديم « كلمة عن جيش القائد ايجور » فى صورته الأصلية وجدناه غير مفهوم لدى القارىء الروسى ، ولم يكن معروفا الا بعد أن ترجم الى الروسية الحديثة (**). وهناك كتاب روسى آخر « رحلة أفاناسى نيكيوتين الى الهند » الذى كتب فى زمن متأخر ، فهو أيضا صعب للقراءة فى النسخة الأصلية . ولم ينشر هذا الكتاب لجمهور القراء الا بعد أن ترجم الى الروسية الحديثة . اذن قراءة آثار اللغات الهندية - الأوربية القديمة فى صورتها الأصلية أمر صعب للغاية ، لكننا لا نستطيع أن نقول هذا بالنسبة لآثار اللغة التركية .

وبعد هذه الرحلة القصيرة الى خصائص اللغة التركية بكافة لهجاتها ومنها اللغة التتارية ، نستطيع أن نقول ان لغة البولجار لم تتعرض للتغير الملحوظ خلال ألف عام من اقامتهم فى أواسط نهر الفولجا . ولم تستطع غلبة الألفاظ العربية أن تمس بنيتها وتغير متن اللغة وصرفها وقواعدها النحوية . ولدينا أدلة قوية تثبت أن لغة التتار الحديثة هى لغة البولجار أى هى استمرار مباشر لها ، فهى لم تختلف عن لغة البولجار فى القرنين

(*) Radlov V. V. : Ö yazıke kumanov po povodu izdaniya kumans — kogo slovaryä. Zapiski imp. Akademii nauk po istoriko — filologicheskomu otdeleniyu. 1884. t. 48. s. 1 - 53.

(**) Molchanov V. : Prikosnoveniye k tayne. "Pdavda", 1976., 12 sentyabr.

الثامن والتاسع الميلاديين الا بقدر قليل ، ولم تتعرض للتغيير الملحوظ في تطورها الطبيعي .

لكن متى بدأ اسم التتار يطلق على البولجار ؟ ومتى سميت لغتهم لغة تبارية ؟ ان أسماء الشعوب كما قلنا من قبل تطلقها شعوب أخرى ، لكنها لا تعكس دائما أسماء حقيقية لها . وسنرى هذا بوضوح فيما بعد ، ثم سنرى دور الحكام السياسيين في هذا الأمر .

وعقب قيام الثورة البولشيفية بذلت جهود لتغيير الأسماء المهيمنة لبعض الشعوب الى الأسماء الحقيقية، وتم الغاء الأسماء الغربية التي فرضتها سياسة قيصرية الروس الاستعمارية على الشعوب المقهورة ، فعاد الأوكرانيون الى اسمهم الحقيقي بعد أن كان يطلق عليهم « مالوروس » ، و تغير اسم « اوستاك » الى « خانطي » (١٠٢) و « سامو - ييدي » (١٠٣) الى « نينتسي » و « تشيريميسي » الى « ماري » و « سارط » الى « اوزبك » الخ ...

ونحن لا نعلم مصدر اسم « البلغار » الذي اشتق منه « بولجار » و « بلكار » و « ملكار » ، فهناك تفسيرات مختلفة له لكنها كلها متضاربة ، لذلك بقي البحث عنه مجالا مفتوحا لعلماء اللغة . وعلى أية حال قد يكون النصف الثاني من هذا الاسم مشتقا من الكلمة الفارسية « آر » « والتركية » « اير » بمعنى المرء أو الانسان .

وربما أطلقت شعوب أخرى هذا الاسم ، وتقبله البولجار منذ قديم الزمان كاسم حقيقي لهم . وكان البلغار يسمون أنفسهم بهذا الاسم حين نزلوا شمال القوقاز وضاف بحر آزوف ونهر الدون ، لذلك أطلق على دولتهم « بلغاريا العظمى » . ثم نقل البلغار هذا الاسم الى نهر الدانوب الذي أصبح اسما لشعب جديد أي بلغار الدانوب ، كما نقلوه الى ضفاف نهر قاما وأواسط نهر الفولجا الذي بقي اسما حقيقيا لهم على مر العصور ، ومازال يعيش في وحي الشعب حتى أيامنا هذه رغم محاولات تسميته باسم التتار التي استمرت خمسمائة سنة . وقد هاجر جزء من البولجار الى آسيا الصغرى وإلى البلاد العربية حيث كانوا يسمون أنفسهم باسم البولجار ثم المباليك ، حتى ذاب ما بقي منهم بين شعوب الأناضول وفقدوا أسمهم الحقيقي (*) . وكانت العلاقات الاقتصادية والثقافية الوثيقة مستمرة بين البولجار وهؤلاء الذين هاجروا الى آسيا الصغرى والبلاد العربية (**)

Tahir K. : Glubokoye ushelye. M., 1971.

(★)

Amin Alholi, Svyazi mejdou Volgoy i Nilom. 13-15 v.v.M., 1962. s. 40.

(★★)

واحتفظ بهذا الاسم أيضا بقايا البلغار في القوقاز المعروفين اليوم باسم « بلكار » . وكل هذه الحقائق تؤكد أن اسم البولجار أو البلغار قد استقر في وعى الشعب وكيانه ، مما جعل مؤلفي الكتب باللغة العربية في آسيا الصغرى والبلاد العربية يضيفون إلى أسمائهم اسم « بلغارى » تأكيداً لأصولهم وجذورهم التي ينتمون إليها .

كيف يسمى التتار أنفسهم اليوم ؟

فى الجزء الرابع عشر من الموسوعة التاريخية السوفيتية ما يأتى :
« وقد أصبحت بعض الشعوب التركية تطلق على نفسها اسم التتار » .
ونفهم من هذا أن الشعب المعروف بهذا الاسم اليوم قد أطلق على نفسه
اسم التتار بمحض ارادته كوصف يناسب ويعكس أصوله ، ومن ثم فإن
اسم التتار اسمه الحقيقى . وإذا عدنا الى الحقائق التاريخية والوثائق بل
الى ذاكرة الشعب نفسه ، نستطيع أن نرى كيف يخالف مثل هذا الادعاء
الواقع ويجافى الصواب .

لقد أطلق على دولة البولجار اسم « بولجاريا » (بلغاريا العظمى)
التي ذاع صيتها فى روسيا وفى بلاد الشرق الأقصى وجنوب أوروبا . وعلى
الرغم من أن اسم التتار يطلق على هذا الشعب اليوم الا أن هناك بعض
الشعوب المجاورة تطلق عليه اسما آخر ، فنجد مثلا الاودمورت يطلقون على
التتار حتى الآن اسم « بيجارى » أى البولجار ، أما الكازاخ فيطلقون عليهم
اسم « النوغاى » أى القبجاق الشماليين .

وكان الرحالة العربى ابن فضلان الذى زار بلاد البولجار على ضفاف
نهر « ايديل » « الفولجا » فى عام ٩٢٢ م . يكتب أن لهم شعراء وعلماء
يضيفون الى أسمائهم « بلغارى » نسبة الى بلادهم . ويذكر ابن فضلان
ورحالة الشرق الآخرون أسماء بعض المؤرخين البولجار مثل : يعقوب
ابن نعمان البلغارى وأحمد البولغارى ، واسم الفيلسوف حامد بن حارس
البلغارى . ومن الآثار الأدبية التي تعود الى فترة دولة يولجار الفولجا
كتاب « نهج الفرداديس » لمحمود بن على البلغارى الذى ألفه فى عام
١٣٥٧ م ، وهناك حسام الدين مسلم البلغارى الذى قام بتأليف « توارينخ
بلغاريا » فى القرن الثامن عشر ، والشاعر « مولى قولى » الذى عاش فى
الفترة نفسها ، وكان يضيف « بلغارى » الى اسمه نسبة الى بلاده .

وقد انتشرت طباعة الكتب التتارية فى القرن التاسع عشر بمدينة
قازان . وبدأت المؤلفات تظهر تلو الأخرى ، فكان كثير من مؤلفيها يضيفون
الى أسمائهم صفة « بلغارى » ، واستمر هذا حتى مشارف القرن العشرين .
وكانت الكتب حينذاك تنشر بأبجدية اللغة الأم أى اللغة التركية . غير أننا

نجد بين هذه الكتب أحيانا استخدام صفة « اللغة التتارية » ، وهذا يعود الى أن المؤلفين عند اعداد كتبهم للقارىء الروسى ، وهى عبارة عن الكتب المدرسية والقواميس ، كانوا مضطرين أن يسموا لغتهم « تتارية » ، لأن الروس فى ذلك الوقت قد نسوا اسم البولجار ، ولم يعرفوا ذلك الشعب الا باسم التتار . وفى النصف الثانى من القرن التاسع نجد العالم التتارى المشهور « قيوم نصيرى » يطلق للسبب نفسه على لغته « اللغة التتارية » ، ولكنه فى أبحاثه التاريخية والاثنوغرافية وفى علم الآثار يقول ان التتار سلالة مباشرة للبولجار ، وتعود أصولهم وفق شجرة النسب الى البولجار . وقد اضطر المؤلفون رغم ارادتهم أن يستخدموا فى مؤلفاتهم اسم التتار بسبب انتشاره بين الروس ، مشيرين فى الوقت نفسه الى أن هذا الاسم لا يناسب أصولهم ولا يعكس اسمهم الحقيقى .

واعتماد البولجار بطريقة شفوية معرفة شجرة نسبهم التى تمتد الى الجيل التاسع . لكن كانت هناك أسر تسجل شجرة نسبهم فى الكتب التى تنتقل من جيل الى آخر ، فأصبحت وثائق تثبت وتقر الصلة المباشرة بين البولجار وتتار اليوم . وكان « مئات المؤلفين القدامى يستخدمون اسم « بلغار » و « بلغارى » و « بلغارلق » منذ القرن الثانى عشر حتى التاسع عشر (فى رأينا من القرن الثامن حتى التاسع عشر) ، ما يمكن تأكيده من مجموعة المصادر الموثوق بها لدى العلماء . (*) وهذا يؤكد وعى الشعب بأصوله واسمه الحقيقى .

وكان الشعب يميز نفسه عن المغول الذين كانوا معروفين باسم التتار ، ولم يخلط نفسه بهم . وفى ذاكرة الشعب وتراثه الشفهى نجد أمثالا تستعمل حتى الآن وتشير الى موقف الشعب تجاه المغول أى التتار ، ونذكر منها بعض الأمثلة :

- « Tatar atasın satar. » — نستطيع التتارى أن يبيع أباه .
- « Tatar atka minse atasın tanimas. » — اذا امتطى التتارى حصانا لم يعد يعترف بأبيه .
- « Tatar bilen kabirin yanasha bulmasin. » — تجنب الجيزة مع التتارى حتى فى القبر

والتاريخ لا يعرف أمثلة لشعب يسخر من نفسه بهذا القدر من القسوة والحدة أو يهين نفسه بمثل هذه الأمثال ، لأن ذلك يخالف طبيعة

(*) Usmanov M.A. : Tatarskiye istoricheskiye istochniki. 17-18 v. v. Kazan 1972, s. 139-140.

الأمر • وهذا التقييم الذي نجده في التراث ، يوضح أحسن من أى رسالة علمية موقف الشعب تجاه التتار • ومن ثم فإن الادعاء بأن اسم التتار هو اسم حقيقى ، أو أن الشعب أطلق هذا الاسم على نفسه يعاد جهلا فادحا •

ونجد أن في أساطير الشعب وأغانيه وحكاياته يتردد كثيرا ذكر جبل « قاف » أى جبال القوقاز التى صورها الشعب مكانا لالتقاء القوى المعادية ومكانا للشر والمعارك • ويعد هذا أيضا فى رأينا من آثار بقيت فى ذاكرة الشعب عن ماضيه القديم بمنطقة شمال القوقاز قبل هجرته الى أواسط نهر الفولجا •

وكان العلماء الروس الذين درسوا تاريخ التتار ، يرون بوضوح أن ضمهم الى المغول أمر خاطئ • ونجد «ريتشكوف» وهو من مؤرخى القرن الثامن عشر الميلادى ، يشير فى كتابه « خبرة تاريخ قازان فى قديم الزمان والعصور الوسطى » (١٧٦٧) الى أن أهل مدينة قازان ليسوا التتار ، وأن هذا الاسم الذى نسب اليهم ، هو سوء الفهم التاريخى • وكان هذا الكتاب الذى اعتمد على الوثائق الروسية ، هو أول محاولة لاثبات أصول الشعب الحقيقية ، ومنع ظاهرة الخلط بين التتار (البولجار) والمغول التى بدأت فى التاريخ الروسى • ويأتى الكاتب بأمثلة كثيرة لتأكيد رأيه وموقفه من هذه القضية ، فنجد على سبيل المثال يقول : « حين كان « باطيرشا » (١٠٤) يحرض الشعب الباشكيرى على القيام بالثورة كان يطلق فى خطابه على مسلمى هذه المنطقة اسم البولجار » (*) •

وهناك المستشرق الروسى المشهور « جريجورىف » وهو عالم التركيات فى الوقت نفسه ، يعبر عن تقديره العميق تجاه أبحاث « قيوم نصيرى » الاثنوغرافية التى كانت تشير منذ عام ١٨٣٦ م • الى أن « تتار قازان وسيبيريا كانوا يسمون أنفسهم « بولجار » و « بولجارلق » وهم يبيعون الملابس فى شوارع المدن الروسية • (*) أى أنهم كانوا فخورين بأصولهم وواعين بانتمائهم القومى •

وفى عام ١٩٠٩ م • نجد « أليسوف » يرد على الافتراءات المستمرة حول أصول التتار فى مجلة « الفكر الروسى » ويشير الى أنه اذا سئل التتارى « عن قوميته لم يقل انه التتارى ، وهو على حق من المنظور الاثنوغرافى ، لأن هذا الاسم دليل واضح على سوء فهم التاريخ » (***) •

Richov P. : Onit Kazanskoy istorii drevnich i srednich vekov. S.P.B. 1767. (*)

Grigor'ev V. V. • Voljskiye tatari. Biblioteka dlya chteniya, 1836. t. 19., otd. 3, s. 24. (**)

Alisov G. : Musulmanskiiy vopros v Rossii. Ru skaya mlsi. 1909. — 7. s. 29. (***)

كما نجد العلماء الروس الذين اهتموا بأصول التتار ودرسوها من المصادر الأولى ، لا يضمنونهم الى الغزاة أو يخلطون بينهم . ونستطيع أن نضرب أمثلة كثيرة من كتابات وملاحظات هؤلاء العلماء ، لكننا نكتفى هنا بمثال واحد : كان أحد الثوار الديموقراطيين ارلوس « تشيرنوشيفسكى » يعرف جيدا تاريخ التتار وثقافتهم وحياتهم ويعرف اللغة التتارية التي ساعدته في دراسة تاريخهم من المصادر القومية . ويشير « تشيرنوشيفسكى » في كتابه الى أنه يشك في أنه « قد بقي بين تار القرم وقازان واورنبورج أحد يعود بأصوله الى جنود « باطى » ، وأن تار اليوم هم سلالة تلك القبائل التي كانت تسكن هذه المناطق وخضعت مثل الروس للمغول (*) .

ونجد أيضا أنه علماء أوروبا الغربية الذين عرفوا التتار ليس من المؤلفات الأدبية وانما من اتصالاتهم المباشرة بهم ، يشيرون الى أن النظرة الى تسود بلادهم حول أصول التتار ، تخالف الحقيقة ، لأن هذا الشعب هم بولجار من أصل تركي . وهناك العالم الألماني « أولياري » الذي قام بزيارة نهر الفولجا في العقد الثالث من القرن السابع عشر ، يطلق عليهم « تتار - بولجار » (**) . أما الدبلوماسي البولندي « جربرشتاين » الذي كان يعرف التتار قبل أن تخضع امارة قازان للدولة الموسكوفية ، فيقول : « اذا أراد أحد أن يكتب عن التتار لاضطر أن يصف قبائل كثيرة وهي التي كانت تسكن هذه المناطق وخضعت مثل الروس للمغول (*) » .

وفي بداية القرن التاسع عشر قام « جومبولد » بزيارة روسيا ، وكان يهتم بأصول التتار ويحدث التتار أنفسهم في تاريخهم . وتوثقت فيما بعد عرى الصداقة بينه وبين العالم التتاري سيفد الله ، مما جعله يستخدم أبحاثه وملاحظاته عند وصفه لمناطق روسيا الشرقية . ويشير « جومبولد » في كتابه الى أنه يتبع عرف الأدب الغربى عند استخدامه لاسم التتار ، لكنه « لم يعن بهذا الاسم المغول وانما يعنى شعبا من القومية التركية العظمى » (****) .

والى جانب هؤلاء الذين اتصلوا بالتتار اتصالا مباشرا وعرفوهم عن

(*) Chernishevskiy N. G.: Antropologicheskiy prinzip i filosofii V kn. Izbranniye filosofskiye sochineniya. t. 3., M., 1951.. s. 245-246.

(**) Oleariy A. : Opisaniya puteshestviya v Moskoviyu i cherez Moskoviyu v Persiyu i obratno. 1905., s. 408.

(*** Gerbershteyn S. : Zapiski o Moskovskih delah. 1908., 138.

(**** Gumbold A. : Puteshestviye Barona A. Gumbolda. s 18-19.

قرب كان هناك المؤلفون الغربيون الذين لم يعرفوا التتار الا من الكتب الأدبية ، فخلطوا بينهم وبين المغول وجعلوهم - سلالة مغولية . وللأسف الشديد كانت هذه النظرة تسود أيضا الأدب الروسى قبل قيام الثورة ، لكن رغم ذلك كان هناك مشاهير المؤرخين الروس مثل « كرمزين » (Karazin) و « سولوفايوف » (Solovyev) و « كلوتشيفسكى » (Kluchevskiy) وآخرون الذين لم يخلطوا بين التتار والمغول ، وكانوا يعتبرونهم سلالة البولجار . ونرى هذا أيضا فى أبحاث العلماء الروس فى اللغة والتاريخ والتركيبات الذين درسوا اثنوغرافيا وحضارة ولغة التتار دراسة مباشرة . ونجد فى الموسوعة الروسية التى تجمع استنتاجات أبحاث علماء التركيبات الروس ، اشارة واضحة الى أنه « لا يوجد أى آثار للعنصر المغولى الآن بين القبائل الناطقة بالتركية » . ونرى فى موسوعة أخرى السطور التالية : « التتار . هذا المصطلح أقرب أن يكون تاريخيا من كونه اثنوغرافيا ، اذ لا يوجد التتار كشعب مستقل » (*) ثم نقرأ فى مكان آخر : « ان مصطلح الترك - التتار يساوى كلمة « تركى » . أما اسم التتار فى أوروبا الغربية فيعنى حتى الآن مجموعة شعوب مختلفة تماما فى اللغة والأصول » . ونتابع قراءة السطور التالية : « لقد رفض اسم التتار فى العلم تماما من حيث تطبيقه على المغول والطنغوز (١٠٥) ، لكنه مازال يطلق بسبب سوء الفهم التاريخى على بعض الشعوب الناطقة بالتركية فى الامبراطورية الروسية فى مقابل بقية الشعوب الناطقة بالتركية التى تحمل أسماء تاريخية مستقلة كالقرغيز والتركمان (١٠٦) والأوزبك وآخرين » (**).

ونجد أن بداية الخلط المتعمد بين التتار والمغول ينتشر فى الكتب التاريخية الروسية فى القرن التاسع عشر ويزداد قوة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . لقد حاول العلماء التتار فى هذا الوقت العصيب أن يوضحوا بطلان ذلك الخلط مستعينين بالحقائق التاريخية ، لكن مؤلفاتهم لم تنشر بسبب وقوعها تحت اضطهاد الرقابة القيصرية . ونجد أن العمل الوحيد الذى تم نشره فى القرن التاسع عشر ، هو للعالم التتارى « شهاب الدين مرجانى » ، اذ كتبه المؤلف باللغة العربية التى لم تكن مفهومة لدى رجال الرقابة ، و « مرجانى » صاحب المعجم الجبليوغرافى الذى يقع فى ستة أجزاء ويضم تقريبا جميع الشخصيات المهمة فى الشرق الاسلامى منذ ظهور الاسلام حتى منتصف القرن التاسع عشر . وقد اعتمد هذا العمل الضخم الذى أطلق عليه موسوعة الشرق ،

Brokgauz., Nefron : Enziklopedicheskiy slovar., Sp. b.,
1901., t. 64, s. 671.

(★)

bid., t. 67., s. 347.

(★★)

على دراسة عدد ضخم من المخطوطات الشرقية في آسيا الوسطى والبلاد العربية وتركيا وقازان . وللكاتب أبحاث كثيرة في تاريخ الأويغور والسلاجقة والخوارزميين وشعوب تركية أخرى . وقد امتاز الكاتب بعمق معرفة تاريخ شعوب الشرق ودقته المتناهية وأمانته العلمية ، مما جعل أبحاثه ومؤلفاته مصدرا قيما ومهما لتاريخ شعوب حوض نهر الفولجا وآسيا الوسطى والأناضول والبلاد العربية . وكان العالم الأكاديمي « رادلوف » (V. V. Radlov) يعرف « مرجاني » معرفة شخصية وقرأ أبحاثه . وفي المؤتمر الرابع للآثار الذي عقد في قازان عام ١٨٧٧ ، عرف « رادلوف » استنتاجات بحث « مرجاني » وسماها خطوة جديدة في تاريخ « التتار » .

وقد قدم « مرجاني » عند تناوله تاريخ البولجار ، تحليلا موضوعيا ، واستعان في ذلك بمجموعة ضخمة من الحقائق العلمية التي تبين أن تتار اليوم هم سلالة مباشرة للبولجار القدامى . ونجد « مرجاني » في أحد أعماله حول تاريخ البولجار وامارة قازان حيث اعتمد على دراسة الحقائق الاثنوغرافية في المصادر الشرقية القديمة ، يشير الى انتقال مباشر لحضارة ولغة البولجار الى التتار (*) . لكن للأسف الشديد مازالت معظم أبحاثه منسوخة بخط اليد حتى أيامنا هذه ، أما أعماله التي نشرت ، فمن الصعب التعامل معها أيضا ، لأنها مكتوبة باللغة العربية والتتارية الفصحى (١٠٧) .

وهناك العالم المعاصر « جوميليف » الذي يستطيع التعامل مع المصادر المحلية والمصادر الشرقية والغربية ، حين يتحدث في كتابه عن قرابة شعوب روسيا يذكر العلاقات التي كانت تربط بين روسيا القديمة والبولجار - الترك ، وكيف ظهر اسم التتار . ويتفق حديثه هذا تماما مع القضية التي نثيرها على صفحات هذا الكتاب . يقول « جوميليف » : « لقد مضى ألف عام منذ عقد المعاهدة السلمية بين دولتين عظميين في أوروبا الشرقية : روسيا الكييفية ودولة بولجار الفولجا . وعلى الرغم من دخول السلاف في الديانة المسيحية وتمسك الترك بديانتهم الاسلامية فقد وطدت هذه المعاهدة العلاقات بين الشعبين التي استمرت حتى غزو جيوش «باطى» أى قرابة مائتين وخمسين سنة . ومن سخرية القدر أن يطلق اسم «التتار» على سلالة هؤلاء البولجار الذين يشكلون الكثافة السكانية الكبرى في أواسط نهر الفولجا ، ويطلق على لغتهم « اللغة التتارية » ، لكن هذا يعد عبثا وتشويها للحقائق » (**).

(*) شهاب الدين مرجاني : « مستفيد الأخبار في احوال قازان والبلغار » . الجزء الاول ، قازان ١٨٨٥ م

(**) Gumilev L. : Kornî nashego rod tva, — Izvestiya. 1988., 13 apr.

وفى بداية القرن العشرين أى فى أعقاب الثورة الروسية الأولى بدأت تظهر أبحاث جديدة حول أصول التتار التى كان محظورا نشرها من قبل، حين كانت رقابة السلطة القيصرية نرى فى أى بحث حول تاريخ الشعوب الناطقة بالتركية خطرا قد يودى الى إيقاف الوعى القومى لدى الشعوب المقهورة . ومن بين أبحاث هذه الفترة يجدر الإشارة الى كتاب « بلغار تاريخى » (قازان ١٩١٠) للمؤرخ الديموقراطى « أحميروف » الذى يعرض تاريخ أصول التتار ويؤكد مرة أخرى أن التتار هم البولجار ، وذلك من خلال دراسة تحليلية مقارنة لعادات ولغة وديانة وطقوس وزخرفة وفنون وقطع أثرية وباليوغرافة جديدة .

وقد أثار الخلط بين التتار والمغول الغزاة الذى ازداد فى الكتب الرسمية ، مناقشات حادة بين العلماء على صفحات الجرائد اليومية التتارية حول أصول الشعب وخاصة فى جريدة « شورى » و « آنك » . وكانت الغالبية العظمى ممن اشترك فى تلك المناقشات تستعين بالحقائق والمصادر والمادة العلمية وشهادة المتخصصين ، وتؤكد مرة أخرى صواب آراء العالم « مرجانى » حول أصول تتار اليوم . وقد أدى ذلك الى المطالبة برفض اسم التتار الذى فرض عليهم قهرا ، وإعلان الاسم الحقيقى للشعب وهو البولجار . وكانت هناك مجموعة من المؤرخين الذين أيدوا أصول الشعب البولجارية ، لكنهم اقترحوا إعلان اسم « الترك » بحجة أن اسم البولجار يذكرنا باسم البلغار أى الشعب البولغارى الذى يسكن الآن حوض نهر الدانوب أما اسم الترك فيؤكد على صلة الرحم التى تربط بين التتار والشعوب الناطقة بالتركية ، كما أنه مفهوم لدى شعوب أخرى أكثر من اسم البولجار .

وكان ممن اشترك فى تلك المناقشات هؤلاء الذين حاولوا إيجاد الأصول المغولية فى تكوين الشعب التتارى الحديث . وقد اعتمدوا فى « نظريتهم » على كتب التاريخ الروسية الرسمية التى كانت تخلط بين التتار والمغول وتدعى أن التتار هم سلالة المغول . ونجد أن هؤلاء الذين أيدوا هذا الاتجاه كانوا من القوميين المتطرفين ، وأرادوا بتأكيدهم على اسم التتار استغلال انجازات المغول الحربية ورفع شأن أنفسهم . لكن

هذا الرأي الذى بنى على الرمال وعبر عن الاتجاه القومى المتطرف لم يجد
تأييدا ، كما لم يكن ثمة اتفاق بين مؤرخى هذا الاتجاه أنفسهم حول أصول
التتار . وعلى سبيل المثال يقول « حادى أطلاسى » فى كتابه ان « التتار
هم الغزاة الذين قاموا بتدمير دولة البولجار على ضفاف نهر الفولجا » ،
لكنه يقول فى مكان آخر ان « التتار كانوا يسمون أنفسهم دائما « بولجار » ،
وسموا أحيانا أنفسهم بالترك والمسلمين لكيلا يدمجهم مع التتار » (*) .
وبذلك يعارض المؤلف نفسه ويعلن رفضه لاسم التتار الذى وسم به
شعبه .

(*) حادى أطلاسى . قازان تاريخى . ص ١٥ ، قازان ١٩١٠ م .

منوعات حول أسماء « الترك » و « التتار » و « المسلمون »

وقد أثارته الصحافة التتارية الآراء حول قضية اختيار اسم الترك أو المسلمين بدلا من التتار . وفي الوقت نفسه ظهرت حركة مضادة يقودها ممثلو الكنيسة والايديولوجيون الروس الذين لم يفهموا جوهر القضية وربما لأنهم لم يريدوا أن يفهموا شيئا منها ، فتعمدوا تقديم أصحاب هذه الآراء والمقترحات على أنهم مؤيدو حركة « بان - تركية » (الجامعة التركية) و « بان - اسلامية » (الجامعة الاسلامية) .

والمعروف عند كل علماء التركيات أن كلمة « ترك » تنطق في اللغة الروسية بطريقتين مختلفتين . أما كلمة « ترك » في اللغة التركية فتعني تسمية شاملة وعمامة لكل الشعوب الناطقة بالتركية ، وبهذا المعنى كان يستخدم مصطلح « تركي - تتاري » و « تتاري - تركي » مثلما يستخدم مصطلح « سلاف » و « فينو - اوغوريون » للتعبير عن شعوب من أصل واحد ولغة واحدة . لكن « تتاروفوب » أي المبشرين المسيحيين ومؤرخي الإمبراطورية الروسية كانوا يفسرون كلمة « ترك » بمفهومهم الخاص ، اذ فسروا ظهور المقالات في الصحافة التتارية القومية حول قضية اختيار اسم الترك للشعب بأنها مساعي التتار الى الاتحاد مع الأتراك العثمانيين في دولة واحدة ، أو رغبتهم في الانتقال تحت حماية الدولة العثمانية والانضمام اليها ، مع أنهم لزموا الصمت عن آلاف الكيلومترات والمساحات الشاسعة التي كانت تفصل بينهم . وهكذا تم تفسير رغبة التتار في اعلان اسم « الترك » اسما حقيقيا للشعب بأنه انتشار ايديولوجيا الجامعة التركية بين الجماهير الشعبية ، ومن ثمة تم تليفيق الضجة حول خطورة هذا الاتجاه الذي أثار رعبا في الصالونات القيصريّة . ويشير الأستاذ الدكتور « نافيجوف » الى أن هذه الضجة كانت تسعى « لصرف اهتمام الجماهير الشعبية عن قضاياها الاجتماعية والحفاظ على السيطرة عن طريق تحريض الشعوب ضد بعضها » (*) .

Nafigov R. I. : Formirovaniye i razvitiye peredovoy
tatarskoy obshchestvenno-politicheskoy misli. (Ocherk istorii. 1895-
1917) Kazan 1964, s. 53.

ومع هذه الضجة بدأت « المعركة » ، فقد تكونت شبكة واسعة من عملاء البوليس السرى الذين تلقوا من السلطات أمرا بتلقيق أدلة تثبت الحركة المتزايدة لنشاط الجامعة التركية بين التتار • ودارت « طاحونة » المعركة حتى انضمت اليها مؤسسات الحكومة والرقابة والصحافة ولم يستثن منها حتى الرقابة المدرسية • وكان ذلك كله يروق المبشرين الذين تطوعوا بنشاطهم ضد « حركة الجامعة التركية » ، فبدءوا يعلقون فشالهم فى تنصير التتار على شماعه جرائم الجامعة التركية الوهمية • وانضم الى تلك المعركة الاثرياء المفلسون وصناع الأحذية السكرارى والناس من الطبقات السفلى لأنها كانت توفر لهم خبزا ورزقا سياسيا • وقد تعمد هؤلاء الوشاية بالقوميين - الديموقراطيين وأصحاب دور النشر المتقدمة والكتاب والمدرسين والصحفيين والجمعيات الخيرية والمدارس الدينية •

ومن هنا بدأ تفسير نشاط القوى الوطنية من أجل الاستقلال وتطوير نظام المدارس واللغة بأنه حركة متزايدة للجامعة التركية بين التتار التى ستأتى بعواقب وخيمة • أما المبشرون وأجهزة « أبطال الامبراطورية » ودور النشر والصحافة الرسمية فأخذوا يدقون نواقيس انتشار حركة الجامعة التركية بين التتار التى تهدد العرش الملكى والكنيسة وروسيا العظمى التى « لن تنقسم ولن تغيب عنها الشمس الى الأبد » •

وكان بين التتار اقتراح آخر أى اعلان « المسلمون » اسما للشعب ، لكن هذا الاقتراح تم تفسيره أيضا فى صالح النظام الملكى وسياسة قياصرة الروس الاستعمارية التى بنيت على تحريض شعوب ضد أخرى • وقد فسر هذا الاقتراح بأنه ظهور حركة « بان - اسلامية » أى الجامعة الاسلامية • وهكذا أثرت ضجة أخرى حول حركة الجامعة الاسلامية على أنها حركة شاملة بين التتار •

وقد بدأ الاتهام الموجه ضد التتار فى حركة الجامعة التركية والجامعة الاسلامية يتسرب الى الأدب والصحافة الروسية غير الرسمية حتى استطاع أن يؤثر فى وعى جماهير الشعب الروسى • ومن هنا تكونت حلقة أخرى حول « خطر » هؤلاء التتار من « سلالة المغول » الذين يهددون الشعب الروسى والديانة المسيحية • وكان من الصعب على الانسان البسيط أن يفهم دقائق الأمور وخفاياها ، بالاضافة الى ذلك فان المتطرفين من رجال الكنيسة والمدارس المسيحية آنذاك قد نجحوا فى حشو وعى جماهير الشعب الروسى بأسطورة « التتار الأنجاس » الذين أتوا الى روسيا بمصائب لا حصر لها • وكان العمال البسطاء والناس غير المثقفين أو الذين تلقوا قدرا قليلا من التعليم ، يصدقون أن كل هؤلاء الذين انضموا الى حركة الجامعة التركية والجامعة الاسلامية بكونهم « تتار » هم سلالة الغزاة المغول

أنفسهم . وفى مثل هذه الظروف لم تكلف الحكومة نفسها جهدا خاصا لتحريض المسيحيين ضد « بصرمان » (أى المسلمين) و « ماجوميتان » (أى المحمديين) والتتار . ومما يتير الضحك حقا أن السلطة القيصرية كانت تستهين باختلاف مفهوم أصول التتار كسلالة المغول عن الضجة التى أثارت حول حركة الجامعة التركية ، اذ كانت لديهم أسباب اتهام التتار بالجامعة المغولية أكثر من اتهامهم بالجامعة التركية أو الجامعة الإسلامية .

وقد لاحظ أحد المبشرين. تأثير المدارس الروسية وأفكارها المتقدمة على نمو وعى التتار القومى والاجتماعى ، وأشار فى كتابه الذى صدر فى عام ١٨٨١ م . ، الى أن « السحابة المحمدية الضخمة أخذت تغزو الآفاق ، لكن هذا الغزو الجديد ليس من المغول وانما من المسلمين أنفسهم ، وليس من برابرة آسيا بل من البرابرة المثقفين الذين تلقوا تعليمهم فى المدارس والجامعات والمعاهد العسكرية وتعرضت أفكارهم لتأثير الصحف الروسية » (*) . وهكذا نرى أن هذا المبشر كان فى صالحه أن يربط استيقاظ الوعى القومى بالحركة الإسلامية ، وكأننا التتار تعلموا الاسلام من المدارس والجامعات والصحف الروسية .

وكان « بوجدانوف » (D. Boghdanov) أحد رجال المراقبة على حركة النشر التتارية يجيب على سؤال رئيس المخابرات بمدينة قازان حول انتشار حركة الجامعة التركية والجامعة الإسلامية بين التتار قائلا : « ان لفظ الملة الإسلامية اشارة مباشرة الى « بان - اسلاميزم » (حركة الجامعة الإسلامية) ، لأن كل هؤلاء الذين يتبعون سنة الرسول محمد وهم ثلثمائة مليون نسمة ، يطلق عليهم اسم « قاردشلى » (الاخوة) ، أما لفظ الترك فاشارة الى حركة الجامعة التركية » (**). ويقول محافظ مدينة قازان فى تقريره الموضوعى والشامل حول ميول المسلمين الجدد : « ان ظهور التيار التقدمى بين المسلمين الذى اصطبغ بالوان زاهية من الحركة القومية ، جدير بأن يحظى باهتمام السلطات بصورة جدية » (***) . أما « بنيجين » (Pinegin) وهو رئيس اللجنة المؤقتة لشئون صحافة قازان ، وخدام الرقابة القيصرية المخلص الذى اكتسب خبرة ثلاثين عاما من عمله بالرقابة على الصحف التتارية ، وأدرك جيدا كل التيارات الفكرية المنتشرة بين التتار ،

(*) Harlamovitch K. V. et P. P. Maslovskiy i yego perepiska s. N. I. Ilimskim. Kazan, 1907., s. 3.

(**) Tsentrálny gos. arkhiv TASSR., f. 420, d. 134. 1. 14

(***) Ibid. f. 420., d. 256., 1. 2.

فيقول : « ان هدف التتار المثقفين هو الاتحاد الأيديولوجي لكافة الشعوب والقبائل التركية على أساس وحدة اللغة ، والحفاظ على الهوية القومية مع الاقتباس من الثقافة الأوروبية . وهذا لا يتناقض مع ميول سواد الشعب الذي يرفض فكرة القومية ويعتد كل المسلمين شعبا واحدا » . ويشير في مكان آخر الى « أن النبرة العامة في صحف قازان وطنية للغاية ، لكنها لم تظهر مع بداية الحرب الألمانية - النمساوية ، وإنما مع تحركات تركيا . وإذا تتبعنا نشاط حركة المسلمين الوطنية نستطيع القول ان نبرة الصحافة التتارية تناسب ميول الشعب التتاري (*) وهكذا نرى أن ذلك الخادم الأمين لم يجد في الحركة التتارية شيئا من حركة الجامعة التركية والجامعة الإسلامية التي كانت السلطات البوليسية والتبشيرية تراها في كل حرف مكتوب بالخط العربي وفي كل كلمة مطبوعة وتنطق باللغة التركية . ونحن لا نستبعد أصلاء حركة الجامعة التركية والجامعة الإسلامية التي وفدت الى الفكر الاجتماعي التتاري بواسطة ممثلي الحركة القومية في بداية القرن العشرين ، لكننا لا نستطيع أن نوافق على أن هذه الحركة قد نالت انتشارا واسعا بين جماهير الشعب . وهنا يجدر بالإشارة أن هذه القضية لم يتناولها البحث العلمي بصورة كافية حتى الآن ، وكان من الضروري أن نذكرها بسبب الاستخدام السيئ لمصطلح «الترك» و «الشعوب الناطقة بالتركية» و «المسلمون» ، لأن بدونها من المستحيل فهم المسألة التي يدور حولها حديثنا .

والأمثلة السابقة تؤكد أهمية الدقة في تحديد اسم الشعب الحقيقي ، لأن البحث بالمصطلحات قد يؤدي إلى نتائج سيئة للغاية ، وإلى تلفيق وافتراء وتشويه تاريخ الشعب وأصله . ونحنما أطلق التتار على أنفسهم اسم الترك كانوا بذلك يعبرون عن انتمائهم اللغوي ، أما حين سموا أنفسهم بمسلمين ، فكانوا يريدون الإشارة إلى انتمائهم الديني وتمييز ديانتهم عن الديانة المسيحية أو اليهودية . كذلك نجد الروس والأوكرانيين والروس البيض يطلقون على أنفسهم «سلاف» أي أنهم ينتمون بلغتهم وأصولهم إلى المجموعة السلافية ، أما حين يقولون انهم «ارثوذكس» فيميزون أنفسهم بذلك عن المسلمين أو هؤلاء الذين ينتمون إلى طرق مسيحية أخرى . وهذه الأسماء أسماء عامة نجدها عند كل الشعوب تقريبا .

وما زال مصطلح « تركي - تتاري » و « تتاري - تركي » يستخدم حتى الآن في أبحاث علماء التركيات الروس وفي أبحاث علم اللغة بصفة عامة داخل حدود الدولة وخارجها . وكان العالم الكبير « كاتانوف »

(N. F. Katanov) يجيد التركية بكافة لهجاتها تقريبا، واستخدم هذا المصطلح بمعنى واحد أو بمفهوم واحد . كما استخدم العالم « وليخانوف » مصطلح « تناري » و « تناري - تركي » و « تركي » لكل الشعوب الناطقة بالتركية ولهجاتها (*) . ونستطيع أن نقول هذا أيضا بالنسبة لأبحاث علماء التركيات واللغة والتاريخ قبل قيام الثورة التي كانت تستخدم هذه المصطلحات بنفس المفهوم . وتقول « بلاجونا » في ملاحظاتها عن الأدب الروسي : « وكان يتضافر بشكل غريب مصطلح التركي مع مصطلح التتاري والتركي - تناري » (**) . وقدمت المؤلفة بحثا عن استخدام مصطلحات « تركي » و « تناري » و « تركي - تناري » و « تناري - تركي » بمفهوم واحد ، وأشارت إلى تاريخها المعقد . وتقول الباحثة مستغينة بأدلة كثيرة أن هذا التعقيد الاصطلاحي واختلاط الأمور كثيرا ما كانا يؤديان إلى تشويه تاريخ بعض الشعوب التركية وتنويه العلماء وبجماهير القراء .

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قام العلماء المشهورون في علم التركيات مثل « رادلوڤ » (V. V. Radlov) و « سامو يلوڤيتش » (A. N. Samoylovitch) و « بارتولد » (V. V. Bartold) و « باستريمسكي » (S. V. Yastremskiy) وآخرون يطالبون بالقضاء على خلط المفاهيم وتحديد هذه المصطلحات التي تفسر حسب أهواء المؤلفين ، لكن قوة التقاليد الموروثة التي استمرت قرونا طويلة ، كانت أرسخ من الجبال صموذاً ، لدرجة أصبحنا نشاهد في أيامنا هذه الاستخدام الخاطئ لهذه المصطلحات حتى في مؤسسة التركيات العلمية أي في مجلة « علم التركيات السوفيتية » . وكما أشرنا إليه من قبل فإن كثيرا من العلماء والكتاب التتار والشخصيات الاجتماعية البارزة في القرنين التاسع عشر والعشرين قد حاولوا تنظيم هذه القضية ، لكن كل محاولاتهم كانت تفسر في الصحافة ودور النشر الرسمية بأنها حركة الجامعة التركية . ونجد « سامو يلوڤيتش » يشير في كتابه إلى أن الكتاب التتار كانوا يحاولون بمؤلفاتهم تمييز أصول شعبهم التي اهتم بها العلماء الروس بالتقدميون . وكانت هذه الشخصيات التتارية البارزة يقصدون منع استخدام اسم التتار بالنسبة لشعبهم وتغييره إلى اسم الترك أو البوڤار (***) . ثم يشير المؤلف إلى مجموعة المتحمسين الروس الذين كانوا يصورون كل المحاولات من أجل تحديد اسم الشعب

Valikhanov. C. : Sobraniye sochineniy, t. 1., s. 210., 452. (*)

Blagova G. F. : Variatsionnye zaimstvovaniya "turk", "turk" i ih leksicheskoye obosobleniye v russkom yazike. "Turkologichesky sbornik, 1972.", Moskva 1973., s. 117. (***)

Samoylovitch A. N. : V. V. Radlov kak turkolog. Noviy Vostok. 1922., 2., s. 25. (***)

الحقيقى بأنها ظاهرة « بان - تركية » (الجامعة التركية) بدأت تنتشر بين التتار . ويقدم العالم ملاحظاته الدقيقة ويقول ان هذا « ينير الضحك ، لأن الوعي القومى الذى نضج بين الشعوب الناطقة بالتركية فى روسيا قد أدى الى رفض الأسماء التى فرضها الاستعمار والمطالبة باعلان الاسم الحقيقى . وليس من الغريب أن يصبح الاسم الحقيقى هو اسما شاملا الترك » (*) . وهكذا نرى أن هذه الظاهرة كانت تقدمية ولم تقتصر على تتار مدينة قازان ، بل شملت جميع الشعوب الناطقة بالتركية فى روسيا التى أطلق عليها اسم التتار . وللأسف الشديد مازال « التتار » يستخدم كالمعتاد بمعنى المغول - التتار والامبراطورية التتارية حتى فى أيامنا هذه أى فى أيام اعادة البناء والديمقراطية فى المجتمع . ولم يتحرر من تأثير هذا التقليد القديم وجبروته كبار الكتاب مثل « يفتوشينكو » (Y. Yevtushenko) و « أبراموف » (F. Abramov) و « بروسكورين » (P. Proskurin) و « شاتروف » (M. Shatrov) فضلا عن هؤلاء الشعراء الجدد الذين كلفتهم الحكومة السوفيتية اعداد موضوع « حب الوطن » ، فأصبح عندهم سبب وشتم « التتار الأوباش » بمثابة الواجب الوطنى العظيم .

ويعرف القارئ السوفيتى جيدا الكاتب « تشيفيلين » (V. Chivilihin) وخاصة روايته « الذكرى » حيث اعتمد المؤلف فيها على المصادر التاريخية . ونجد الكاتب على الرغم من اسرافه فى حسم المسائل المتعلقة ببعض القضايا التاريخية وإيمانه العميق بادعاءات العالم «ريباكوف» (B. A. Ribakov) وآرائه غير الموثوق بها ، إلا أنه يعترف ببطلان المقارنة بين التتار والمغول . ولناخذ كلام المؤلف نفسه الذى يقول فى كتابه : « وكما كنت أقول فى أول صفحات هذه الطبعة من الكتاب ان التتار اسم شامل ومصطلح تقليدى لتلك الجيوش التى تكونت من قبائل مختلفة وهاجمت روسيا فى عام ١٢٢٣ و ١٢٣٧ و ١٢٤٠ م . فلم يكن لها أى روابط قومية مع أجداد تتار الفولجا الذين نراهم اليوم . أما جذور تتار قازان فتمتد الى العصور الغابرة وتتصل بذلك الشعب العظيم الصامد الذى شيد دولته القوية والغنية فى العصور الوسطى قبل الغزو المغولى وهى دولة بلغاريا (بولجاريا) على ضفاف نهر الفولجا . ثم يذكر الكاتب بطولات بولجار الفولجا الذين أحرزوا مع جيرانهم نصرا مبينا على جيوش القائد المغولى « سبوداى » فى عام ١٢٢٣ م . لكنهم ما لبثوا أن أصبحوا ضحية الحملة المشتركة لجيوش « باطو » و « سبوداى » الأولى الى الغرب . وكان ذلك الشعب من الأوائل الذين ثاروا ضد المغول ، ويدفع فدية للامبراطورية

الذهبية مثل الروس ، فهل يكون من الصواب من وجهة النظر التاريخية واللغوية أن نردد اليوم الحديث عن النير التتارى الذى وقع على التتار أنفسهم ؟؟

أما المصطلح التقليدى « غزو المغول - التتار » أو « نير المغول - التتار » فلا يعكس بوضوح التكوين العرقى لفاطنى السهوب الذين هاجموا روسيا فى القرن الثالث عشر ، ولا يلقى الأضواء على الطبيعة الاجتماعية والطبقية والسياسية للامبراطورية التى استبدت بقسوة كثير من شعوب آسيا وأوروبا فى العصور الوسطى . ونحن نستخدم هذه المصطلحات الشائعة التى ربما من الصعب إيجاد بديل لها ، يجب علينا أن نأخذ دائما فى الحسبان واقع الظروف التى أدت الى الأحداث التاريخية العظمى فى ذلك الوقت » (*) .

ونحن نوافق الكاتب تماما فى أنه من الخطأ أن نخلط بين الغزاة المغول والتتار الذين نراهم اليوم ، لكننا نعترض على أن هذه المصطلحات شائعة الاستخدام ومن الصعب أن نجد بديلا لها . لقد نشرت هذه المصطلحات فى أبحاث المؤرخين - المستشرقين منذ زمن بعيد ، فأطلق على « المغول - التتار » اسم « الغزاة المغول » أو « جيوش باطى » أو « جيوش جنكيز خان » أو « الأورديون » . وعلى الرغم من أن هذه الأسماء لم تكشف لنا هوية جيوش المغول الا أنها أقرب الى الحقيقة .

وعقب قيام الثورة البولشيفية رفضت كثير من الشعوب اسم التتار الذى فرضه عليها الاستعمار ، وأعلنت فى البداية اسم الترك ، لكنها خشية من خلط الشعوب الناطقة بالتركية وحفاظا على هويتها أعلنت فيما بعد أسماء جديدة مثل الأوزبك والأزريين وما الى ذلك .

ولا شك فى أن مقاومة التتار ضد الاسم الذى فرضه الاستعمار ، ومحاولة تغييره الى الاسم الحقيقى أى « الترك » أو « البولجار » كانت ظاهرة تقدمية أملاها التاريخ ، ولم يكن لها أى صلة بحركة الجامعة التركية أو الجامعة البلغارية التى اختلقها الأيديولوجيون للنظام القيصرى والمبشرون والموظفون فى البوليس السرى ، ثم أخذ يرددها العلماء الاجتماعيون من ذوى المصالح الخاصة .

واسم « البولجار » هو اسم حقيقى لتتار الفولجا ، فقد حمل الشعب هذا الاسم ما يقرب من ألف عام ودافع عنه بوعى كامل . وهذا دليل

(★) Chivilihin V. : Pamyat. Roman — esse. Kn. 2, L. 1983., s. 571-568.

واضح على أن الشعب كان يعلم أصوله وانتماءه العرقي الى الشعوب التركية . وقد أبدى الشعب استعداده لاعلان اسم شامل - الترك - او مصطاح ديني « المسلمين » ليس من أجل تعصبه لشيء ما ، وانما من أجل التخلص من تلك التسمية المهينة التي فرضت عليه قسرا .

وكان مفكرو السلطة والمبشرون و « الموظفون الوطنيون » يسبون التتار بسبب انتمائهم الى الدين الاسلامي ، فكانت كلمة « المسلم » تنطق من أفواه رجل الكنيسة بهسدف الاهانة « بصرمان » و « بصرمانين » ، وتحمل معنى عدو الديانة المسيحية والكافر والهمجي . لكن الشعب لم يقبل اسم المسلم كاهانة له ، لأنه كان يعبر عن انتمائه الديني ، لذلك فهو لم يبال بذلك الاستخفاف .

والمعروف أن اسم المسلم أو الاسلامي كان يستخدم فيما بعد بمعنى قريب من الاثنوغرافيا ، ونكتفى هنا بالإشارة الى استخدام هذا الاسم في أعقاب عام ١٩١٧ م . بالنسبة لتتار الفولجا وشعوب اسلامية أخرى . وفي سنوات الحرب العالمية الأولى تم تكوين - في الجيش الأحمر - الفرق والفيالق الاسلامية من التتار والباشكير المسلمين ، كما تم تكوين « اللجنة الاسلامية الاشتراكية » و « اللجنة الاسلامية » وفروعها بمناطق الفولجا وأورال وسيبيريا كمؤسسات الحكومة الاشتراكية للشئون القومية ، فلم يطلق عليها أحد اسم مؤسسة حركة الجامعة التركية ، لكن اذا ظهرت مثل هذه المؤسسات الاسلامية قبل قيام الثورة لأطلق عليها حركة الجامعة الاسلامية .

وكما سبقنا اليه الإشارة فقد استبدلت بعد قيام الثورة البولشيفية الأسماء المهينة التي فرضتها سياسة قياصرة الروس الاستعمارية على كبر من شعوب الامبراطورية الروسية ، لكن اسم التتار بقي يطلق على البولجار ، وبقيت معه بطبيعة الحال صورة التتار التي كانت تغرس في ذاكرة الشعوب قرونا طويلة كسلالة الغزاة المغول . لكننا لم نجد بين مؤلفات اليوم الا بحثا واحدا حيث يدافع فيه صاحبه عن اسم التتار وهو بحث للمؤرخ التتاري « غمبدولين » (Gubaydulin) . وكان المؤلف في أول أعماله « أترك نحن أم تتار ؟ » (قازان ١٩١٨ م . باللغة التتارية) يعارض بشدة اسم التتار ويقترح اعلان اسم الترك كاسم حقيقي للشعب ، فيعلل ذلك بأن اسم التتار لا يتناسب مع أصول الشعب من وجهة النظر الاثنوغرافية والانثربولوجية واللغوية . ولم تمض عشر سنوات حتى نجد نفس المؤلف ينادي بالمحافظة على اسم التتار (*) .

Gubaydulin G . K. voprosy o proishozhdenii tatar Vostnik (★)
nauchnogo obshchestva tatarovedeniya. 1928., — 8., № 131-142.

لكن آراءه لم تتغير في هذه الفترة حول أصول التتار ، اذ أنه يشير الى عدم وجود شيء مشترك بين المغول والتتار الذين نراهم اليوم . وعلى الرغم من ذلك يهتدح المحافظة على اسم التتار ، لأنه يرى أن الروس وسعوباً أخرى قد اعتادت تسمية الشعب باسم التتار منذ زمن بعيد ، وأن تغيير الاسم سيؤدى الى خلط الأمور . ويوجد فى ذلك بلا شك جزء من الحقيقة ، فلا داع لاثارة المناقشة حوله . ويشير المؤلف فى مكان آخر الى أن محمود القشغرى من علماء التركيات القدامى يذكر فى كتابه « ديوان اللغات التركية » قبيلة « تتار » وهى فى رأيه قبيلة تركية ، مما يعطينا حق المقارنة بينها وبين تتار اليوم . وبالنسبة نذكر هنا الادعاءات الشبيهة لها للعالم الباشكبرى « غريبوف » الذى يرى أن تتار اليوم هم سلالة هؤلاء التتار . وقد اعتمدت ادعاءاته أيضا على أن « محمود القشغرى كان يضم التتار والباشكير الى الأتراك » (*) . ومن هنا بدأ تفسيره بأنه كان يوجد فى منطقة مانجوريا شعب تركى معروف باسم التتار ومنهم انحدرت أصول التتار الذين نراهم اليوم .

وفى حقيقة الأمر كان محمود القشغرى يتحدث فعلا عن التتار الذين عاشوا فى القرن التاسع الميلادى على الحدود المتاخمة للصين ، وهم من إحدى القبائل المغولية التى قضى عليها « جنكيز خان » . لكن القشغرى لم ينسب هؤلاء التتار الى القبائل التركية ، اذ نجده يقول : ان قبائل « قاي » و « قباق » و « تتار » و « باصيل » تتكلم لغاتها ، لكنها تعرف أيضا التركية » (**) واذا أكد القشغرى على أن هؤلاء التتار يتكلمون لغتهم فالأمر واضح للغاية أن لغتهم ليست تركية ، وانهم يفهمونها فقط . وهكذا نجد « غريبوف » يقتطف لأسباب غير معروفة الكلمات التى تناسب رأيه ، و « يكتشف » أن التتار كانوا داخل حدود منغوليا فى القرن التاسع ويتكلمون اللغة التركية ، ثم زحفوا مع المغول الى أواسط نهر الفولجا ، وانحدرت منهم أصول التتار الذين نراهم اليوم . وينتج من رأيه أن التتار ليسوا سلالة الموحدين . ونرى أن نذكر فى هذا المكان العالمى الأكاديمى « بارتولد » الذى كان يؤكد لنا أن « لغة هؤلاء التتار تختلف عن التركية ، وكان محمود القشغرى يعلم هذا » (***) ومن هنا نرى أن « غيبودولين » و « غريبوف » لم يفهما القشغرى ،

Garibov. : Mahmud Kashgari i kipchakskiye yaziki Uralo- (★)
Povoliya, Sovetskaya turkologiya, 1972., — 1., s. 47.

Kononov A. N. : Mahmud Kashgari i yego "Divan lugat (★★)
et-turki". Sovetskaya turkologiya 1972., — 1., s. 13.

Bartold V. V. : Sochineniya., t. 5., M., 1968., s. 559. (★★★)

وعلى الرغم من هذا فقد حاول كل منهما بهذا الفهم الخاطئ أن يكتشف شيئا جديدا .

ويدافع «غبيدولين» عن رأيه بقوله : « هناك شعوب كثيرة اكتسبت أسماءها من الغزاة . ونستطيع أن نقول ان الشعب الروسى قد تعرض للذل والاضطهاد من الفارياج الذين حكموه ، ورغم ذلك لم يترك اسم « روسيا » وهى كلمة فارية . وهكذا الأمر بالنسبة للفرنسيين » . ونحن هنا لانريد أن نذكر تاريخ أسماء الشعوب وأصولها ، لكننا نريد أن ننسب القارىء الى شىء واحد : وهو أن كلمة « روسيا » أو « الروسى » أو « الفرنسى » لاتكمن من ورائها المعانى السلبية كما هو الأمر بالنسبة لاسم التتار . ثم اذا سلمنا بهذا الرأى لكان يجب على شعوب أخرى معروفة باسم التتار أن تحتفظ بهذا الاسم ، لأنها كانت تحت سيطرة المغول أيضا ، وكانت تنسب وقتا طويلا فى كتب الآداب الى سلالة المغول . لكن هذا الاسم قد رفض تماما من قبل الأزرين والأوزبك وغيرهم .

وهناك دليل آخر عند « غبيدولين » وهو أن اعلان اسم البولجار سيؤدى الى الخلط بين نثار اليوم وبين بلغار نهر الدانوب . لا شك فى أنه يوجد فى ذلك جزء من الحقيقة ، اذ نجد فى الكتب أمثلة يتضح من خلالها الخلط بين بلغار الدانوب وبلغار دولة بلغاريا العظمى . وهذا بطبيعة الحال يعود الى مستوى الباحث العلمى وسعة اطلاعه .

أما فى أيامنا هذه فقد امتازت المصطلحات بالدقة ، فأصبح يطلق على بلغار الدانوب اسم البلغار ، وعلى بلغار نهر الفولجا اسم البولجار . وعلى الرغم من وجود تشابه فى النطق بين الكلمتين الا أنه لا يشكل صعوبة علمية . ولا يخلط القارىء فى الأبحاث التى تتحدث عن تاريخ بلغار الدانوب ، بين بولجار الفولجا وبلغار الدانوب . أما فى الأبحاث العامة حيث يحتمل وجود هذين المصطلحين ، فيستطيع المؤلف أن يضيف كلمة «الفولجا» أو « الدانوب » للتمييز بين الشعبين . وهذا يتم بالفعل عند دراسة تاريخ بلغار الدانوب وبلغار الفولجا القدامى . طبعا من الأفضل أن تكون أسماء الشعوب غير متشابهة من ناحية النطق ، لكننا لا نستطيع أن نضع هذا مقياسا أساسيا لاثبات الاسم الحقيقى لتتار اليوم . وهناك أمثلة كثيرة لأسماء متقاربة فى النطق وتعود الى شعوب مختلفة مثل : هنود وهنود الحمر ، أو سلاف وساوفاك وسلوفين (١٠٨) وما الى ذلك . وهكذا نرى أن مخاوف « غبيدولين » ليست خطيرة لدرجة أن نرفض اسم البولجار .

واليوم نجد الشعوب العربية بأصولها المختلفة تسكن أكثر من

عشرين دولة وتنتمي الى أجناس وديانات مختلفة ، فالشعب المغربي مثلا يختلف عن الشعب اللبناني او اليمني ، وحتى مواطنو دولة واحدة كلبنان يختلفون في أصولهم العرقية . لكن رغم ذلك كله لا يقترح أحد تغيير اسم العرب الى اسم آخر . ربما تشكل تسمية شعوب هذه الدول باسم واحد بعض الصعوبات في دراسة تاريخها وحضارتها ، الا أن تلك الشعوب لم نترك بهذا السبب اسمها الحقيقي ، فلا تخاف من اللبس حول أسمائها . ويمكننا التغلب على هذه الصعوبات بإضافة صفة مميزة لبلد أو ميرو - انونيم ، ثم لغة البشر ثرية للغاية حتى تستطيع التعاب على أى صعوبات اصطلاحية .

وحجة « غبيدولين » الأخيرة لم تأخذ في الحسبان أمرين أولهما : ان البلغار الذين فرضوا سيطرتهم على قبائل نهر الدانوب السلافية ذابوا بينها ، بينما لم يترك المغول تأثيرا ملحوظا على البولجار . لقد تعرضت قبائل الدانوب عقب الاندماج مع البلغار لتغيرات ملحوظة في العادات والتقاليد والموسيقى وأساليب الحياة ، أى أن هذا الاختلاط قد أدى الى ظهور شعب جديد . ثانيهما : ان تغلغل البلغار الى الدانوب لم تصحبه حروب ، بل تم بطريقة سلمية . ولم يذكر التاريخ العداوة أو المناوشات بين البلغار الوافدين والقبائل المحلية ، ومن ثم فقد تم الاندماج من كلا الطرفين بلا صعوبة .

ورأى « غبيدولين » حول ظهور المشاكل بعد تغيير الاسم ليس دليلا مقنعا . ثم نجد المؤلف يناقض نفسه حين يقول : « ان تاريخ الامبراطورية الذهبية ليس جزءا أساسيا لتاريخ تثار الفولجا » . وأن هذا التاريخ « هو تاريخ كل الشعوب المذكورة التي وقعت تحت سيطرتها » وهذه الشعوب متفاربة ولها صلات وثيقة من الناحية الحضارية وخاصة من الناحية اللغوية » (*) اذن هذه الملاحظات لاتعد دليلا أو برهانا لضرورة تسمية البولجار باسم التثار .

البلغار والبلكار والبولجار

لقد سبق أن طرحنا من قبل سؤالا وهو : هل بقي جزء من ابلغار في الأماكن التي كانوا يسكنونها ؟ أليس البلكار وشعوب شمال القوقاز الأخرى هى أيضا من سلالة البلغار القدامى ؟ وقد أثبت بين المؤرخين واللغويين مناقشات ومجادلات عديدة استغرقت زمنا طويلا حول أصول البلغار القدامى ، لكننا نترك هذه القضية لأصحاب التخصص ونحاول

Gubaydulín G. : op. cit., s. 141.

(*)

الاجابة عن السؤال الذى طرحناه من قبل • ومن المعروف أن بلغاريا العظمى قد تفككت بين القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وانتقل جزء من البلغار الى الفولجا والدانوب ، أما الجزء الآخر فقد ظهر قى آسيا الصغرى والبلاد العربية ، وذاب بين شعوب أخرى ، ولم يكون اتحادا دوليا •

وبقى جزء من البلغار فى الأماكن التى كانوا يسكنونها ، لكنهم ترحلوا داخل شمال الفوقز تحت ضغوط قبائل وشعوب أخرى ومنها الكباردين • والتاريخ لا يعرف أمثلة حيث تركت الشعوب الكبرى بكافة جماعاتها الأماكن التى كانت تسكنها وتعمرها ، أو عاشت فيها مئات السنين وتركت جذورها • ولكيلا يتحول حديثنا الى مجرد سرد الكلام نود أن نشير الى شهادة المؤلفين القدامى وأبحاث العلماء فى الماضى والحاضر • ونأخذ على سبيل المثال تاجر البندقية « باربارو » الذى عاش ما يقرب من خمسة عشر عاما (١٤٣٦ - ١٤٥٢ م) • فى مدينة طانا على ضفاف نهر الدانوب ، وترك لنا معلومات قيمة عن بقايا البلغار فى هذه المناطق (*) • وهناك الرحالة والمؤرخون الذين زاروا هذه المناطق فى أزمنة مختلفة ، يتحدثون عن أصول البلكار والقراتشاي والبلغار القدامى (**).

أما عالم الاثنوغرافيا الروسى « قاراولوف » الذى عاش قبل الثورة ، فيكتب فى بحثه أن البلكار والقراتشاي كانوا يعيشون وفق الأساطير والحكايات الشعبية على سهوب شمال جبال القوقاز ، ثم انتقلوا الى المناطق الجبلية تحت ضغوط الكباردين ، وسكنوا حوض أنهسار : التشيريك والتشيرييم والباكسان ، « فهم بقايا الشعب البلغارى الذى كان يسكن حوض نهر الفولجا وهاجر عبر جنوب روسيا الى شبه جزيرة البلقان » • وبقي البلكار والقراتشاي هناك زمنا طويلا ، وعاشوا فى العزلة ، لذلك « احتفظوا بنقاء اللغة » (**).

والبلكار والقراتشاي شعبان من أصل واحد يتحدثان نفس اللغة • وقد اختلفت النظريات وتنوعت حول أصولهما كما كان الأمر حول أصول التتار ، فهناك من يرى أن القراتشاي هم بقايا قبائل الهون ، وأن البلكار فرع من الشعب التشيكي وبذلك يضمهم الى شعوب بعيدة وغريبة عن بعضها تماما • ويرى الآخرون أن هذين الشعبين بقايا من جيوش النوغاي

Barbaro : Kontarini o Rossii. Leningrad, 1971, 595-98. (★)

Adigi Balkari, Karachayevtsi v izvestiyah avtorov., 8 (★★)
19 v. v., Nalchik 1974, s. 635.

Karaulov N. A. : Balkari na Kavkaze. V kn. Sbornik materialov dlya opisaniya mestnostey i plemen Kavkaza. V. 38. Tiflis 1908., s. 132-133. (★★★)

أى جيوش « تيمور » • لكن علماء التركيات يرون أن هذين الشعبين
سلالة الخزار أو البولوفتسى • وأخيرا يرى بعض العلماء أنهم سلالة
مباشرة من البلغار •

ونجد « لايبانوف » الذى تناول فى بحثه كل هذه الآراء ، يشير الى
أن البلكار والقراتشاى سلالة مباشرة من البلغار القدامى الذين بنوا دولة
بلغاريا العظمى ، وبعد تفككها تكونت من بقايا البلغار فى هذه المناطق
قبائل « كوبى - بلغار » و « دوتشى - بلغار » و « أوجوندور - بلكار »
و « تشدار - بلكار » ومنها انحدرت جذور البلكار والقراتشاى الذين
نراهم اليوم (*) • والمؤلف يعترف بتأثير الشعوب المجاورة على تكوين
هذين الشعبين ، وهى ظاهرة عامة تقريبا عند كل الشعوب ، ويشير الى
أن هذا التأثير لم يغير اللغة والأصول لكلا الشعبين •

وقد أثبت « كوكوف » و « شاهمورزايف » أن أسماء المنطقة
الجغرافية تكونت من لغة البلكار ، ويتم تفسيرها بواسطة هذه اللغة (**).
وتعد لغة البلكار والقراتشاى بين جميع الشعوب الناطقة بالتركية أقرب
الى لغة القبيجاك (البولوفتسى) وتنتشر اليوم والنوغاى والباشكير
والقوميق (***) • أما الكلمات فى لغة البلكار والقراتشاى التى تعود
بأصولها الى اللغة الألائية ، فقليلة للغاية (****) •

وفى الفترة ٢٢ - ٢٨ يونيو عام ١٩٥٩ م عقد مؤتمر علمى بهدف
تحديد أصول تلك الشعوب ، وقد أسفر البحث فى هذا المؤتمر عن نتائج
توصل اليها عدد من المتخصصين منها قول عالم اللغة « ساتتايف »
(A. H. Sattayev) : « ان لغة البلكار الحديثة احتفظت بالعناصر
البلغارية » •

وتقول عالمة الآثار والانثربولوجيا « أليكسييفا » : « ان الوثائق
تؤكد على أن البلكار يستمدون أصولهم من البلغار » • أما عالم
الأنثربولوجيا « أليكسييف » (V. P. Alekseev) فيشير الى أن المظهر

Laypanov : K istorii karachayevtsev i balkar. Cherkesk., (*)
1957., s. 68.

Kokov D. N., Shahmurzayev S. O : Balkarskiy toponimis- (**) (*)
ticheskiy slovar., Nalchik., 1970., s. 4-5

Gabjiyeva N. Z. : Problemi turkskoy arealnoy lingvistiki, (***)
Moskva., 1975.

Hadjilayev II. I. : Ocherki karachayevsko — balkarskoy (****) (*)
leksikologii., Cherkesk., 1970., s. 170.

الخارجي وتكوين جمجمة رأس البلكار قريبان من البلغار (*) .
وعلى الرغم من الخلاف حول عدد من القضايا فقد أكد المؤتمر على أن
أصول البلكار والقراتشاي تنحدر من البلغار القدامى . وقد تعرض عدان
الشعبان لبعض التأثير من قبائل « آلان » وقبائل مجاورة أخرى في منطقة
القوقاز ، لكن هذا التأثير لم يأت بتغيير ملحوظ في اللغة والتعاطف والسمات
وأساليب حياة البلكار والقراتشاي .

غير أن « أليكسييفا » التي اشتركت في هذا المؤتمر ببحث جديد
يختلف رايها تجاه هذه القضية ، اذ تقول : « ان القبائل التي كانت تسكن
الجبال، هي رواة تم منها تدوين البلكار والقراتشاي » (**) . أما « كروبنوف »
(Y. I. Krupnov) صاحب مقدمة هذا البحث ، فيقول : « ان
استنتاجات الباحثة ستفوز برضا القراء التي تبدو صحيحة من الوهلة
الأولى ، وهي أن البلكار من شعوب القوقاز الأصلية » (***) . لكن باي
لغة كانت تتكلم هذه القبائل أو الشعوب الأصلية ؟ أكانت تتكلم التركية
أم الألانية أم لغات أخرى ؟ لم تقدم استنتاجات أليكسييفا أي اجابة على
هذا السؤال . ثم اذا كانت تلك القبائل الجبلية تتكلم اللغة التركية
فالاشارة اليها واجب ، أما اذا كانت تلك القبائل تستخدم لغات أخرى
فالامر يحتاج الى تفسير : لماذا أصبح البلكار والقراتشاي يتكلمون
التركية ؟ ويجدر بالاشارة هنا أن الشعوب مثل التشيشين والانبوش
والكباردين والأديجي التي كانت أقرب من البلكار والقراتشاي الى حدود
بلغاريا العظمى ، قد احتفظت بلغاتها وتقاليدها وعاداتها . ونجد صاحب
المقدمة مع تأييده لاستنتاجات الباحثة يعترف بأن هذه الاستنتاجات
« تبدو صحيحة من الوهلة الأولى » ، ومع ذلك يضطر الى أن يشير بأنها
غير مقنعة .

أما « أليكسييف » الذي اشترك أيضا في هذا المؤتمر ببحث
عنوانه « أصول شعوب القوقاز » ، فيحاول أن يعيد النظر تجاه هذه
القضية ويدعى أن البلكار والقراتشاي أقرب من الناحية الأنثروبولوجية
الى قبائل « آلان » ، لكنه حين أحس بأن الدليل الأنثروبولوجي غير كاف
لحل قضية أصول البلكار والقراتشاي ، اضطر الى الاعتراف باستنتاجات
« بابايف » (Babayev) و « ساتتايف » (Sattayev) حول قرابة

(*) Materiali nauchnoy sessii po probleme proisхоjdeniya
balkarskogo i karachayevskogo narodov., Nalchik., 1960., s. 94, 103,
330.

(**) Alekseeva V. P. : Drevnaya i srednevekovaya istoriya
Karachayevo Cherkessii., Moskva., 1970., s. 204.

(***) Ibid., s. 4.

لغة البلكار والقراتشاي والبلغار القدامى . ونجد هذه الاستنتاجات يتخذها دليلا منطقيا مؤيدو النظرية التي تنص على أن لغة البلكار والقراتشاي هي لغة البلغار القدامى أى اللغة التركية . ويشير المؤلف فى نفس المكان الى أن « الانتماء الاخوى لتلك الشعوب لا تعنيه فى استنتاجاته كثيرا » (*) . لأنه ليس من علماء اللغة أو علماء التركيات ، لكنه مضطر الى أن يعترف بأن « النظرة التأملية الى الحقائق الموجودة تتيح لنا فرصة ايجاد الأدلة فى صالح هذه النظرية » (**) التى تقول ان هذين الشعبين يعودان بأصولهما الى البلغار القدامى . غير أن هذه المحايدة تجعلنا دون ارادة أشد حذرا وحرصا تجاه القضية . ونجد المؤلف يجافيه الصواب حين يدعى أن العالم المشهور فى اثولوجيز الشعوب « جيمادى » لا يوافق على الأصول البلغارية لهذين الشعبين ، والعكس صحيح ، لقد أيد « جيمادى » فى المؤتمر الأصول البلغارية للبلكار والقراتشاي (***) ، لكنه أشار فى خطابه الى ضرورة تأييد هذه النظرية بحقائق جديدة من علم اللغة والآثار لمنع تشويه أصول هذين الشعبين .

وعقب هذا المؤتمر ظهرت الأبحاث الجديدة التى أيدت استنتاجات « جيمادى » حول الأصول البلغارية للبلكار والقراتشاي ، لكن « أليكسييف » تجاهل هذه الأبحاث لأسباب غير مفهومة . ومن بين هذه الأبحاث نجد بحث « كريستانوف » (****) . حيث اعتمدت نتائجه على الحقائق الأنثروبولوجية التى تقول ان البلكار والقراتشاي قريبون للغاية من بلغار نهر الدانوب . وقد وفد البلغار القدامى الى القوقاز فى فترة تتراوح بين القرنين الأول والثالث الميلاديين . وكانوا ينزلون فى البداية جنوب بلاد أذربيجان ، حيث اكتسب النهر الذى يتأخم الآن حدود إيران ، اسم « بلكار - تشاي » منذ ذلك الزمن البعيد . ومن ثم فان البلكار والقراتشاي هم بقايا البلغار القدامى ، وقد انتقل جزء منهم تحت قيادة « أسباروخ » الى الدانوب حيث اشترك فى تكوين الشعب البلغارى الحديث .

ونريد هنا أن نقدم نبذة عن حياة « كريستانوف » . فقد كان المؤلف يقيم فى العقد الثالث من القرن العشرين فى الجمهورية الكباردينية - البلكارية حيث درس أنثروبولوجيا البلكار والقراتشاي .

Alckseev V. P. : Proizhojdeniye narodov Kavkaza., (★)
Moskva., s. 200.

Ibid., s. 400. (★★)

Materiali nauchnoy sessii o probleme proishojdeniya Bal- (★★★)
karskogo i Karachayevskogo narodov. Nalchik., 1960.

Kristanov Z., : K voprosu otnožeza na Blkarskiya narodov. (★★★★)
Is'oricheskiy pereglyad. Sofiya., 1966., 3., s. 33-51.

واستمر العالم في أبحاثه ، وكان في فترة الحرب العالمية الأولى يدرس أنثروبولوجيا الشعوب الناطقة بالتركية بآسيا الوسطى حيث سجل الشكل الأنثروبولوجي لتلك الشعوب الذي يشير إلى أن العنصر المغولي يشكل نسبة ٩٠٪ بين الكازاخ و ١٠٪ بين الأوزبك ، لكنه لا يوجد بين البلكار والقراشاي . وكانت أبحاثه تجري على ألفى شخص من الرجال والنساء والأطفال وشيوخ البلكار والقراشاي ، كما كان يستعان بهم عند المقارنة الأنثروبولوجية بينهم وبين بلغار نهر الدانوب .

وهناك العالم « جابينتسيف » الذي درس الآثار القديمة المكتوبة على الجلود في منحف مدينة « نوفوتشيركاسك » بالجمهورية الفرادشايية - الشركسية ، وعلى الحجارة في بلدة « ماياتس » و « حومارينسك » ، يؤكد مرة أخرى على أن أصول البلكار والقراشاي تعود إلى البلغارية - التركية ، لأن لغة تلك الآثار مفهومة لديهم اليوم دون أدنى صعوبة (*) . ويؤكد هذا العالم في بحثه الآخر الذي يدور حول تاريخ تكوين شعوب شمال القوقاز ، على أنه « لا يوجد لدينا أي سبب أو مبرر لرفض العلاقة الوراثية بين اسمي « ملكار » و « بلكار » ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأسماء القديمة مثل « بولجار » ، آر » و « بلك » ، آر » و « بولكار » . أما اسم « قراشاي » فهو اسم أوغوزي مشتق من اسم « قرا - باليقار » أي البلغاري الأسمر « (**) » ويشير المؤلف في نفس المكان إلى أن لغة البلغار القدامى هي لغة البتشيبيج ، وأن البلكار والقراشاي نقلوا إليها أسماءهم الأثينية « آلان » و « بلغار » و « بتشيبيج » (***) كما يشير المؤلف إلى أن العالم « كوزنيتسوف » يشبه اللغة البلغارية القديمة بلغة الخزار (****) .

ونجد بعض الباحثين يذكرون تشابه لغة البلكار والقراشاي بلغة الخزار والبتشيبيج ، فيضمون لغتهم إلى مجموعة اللغات القبطية (*****) ، وهو أمر جدير باهتمام العلماء لتفسير قراءة لغة البلكار والقراشاي بلغة التتار (البولجار) والنوغاي والقوميق

Habichev M. A. : O drevnih runicheskikh nadpisyah v alanskikh katakombah. Sovetskaya turkologiya. 1970., 2., s. 64-68. (*)

Habichev M. A. : Ob etnonimah., Sovyetskaya turkologiya., (***) 1970, 2., s., 12.

Ibid., s. 129. (***)

Kuznetsov V. A. : Nadpisi Humorinskogo gorodisha., (****) Sovyetskaya arheologiya., 1963., 1., s. 303.

"Sovetskaya turkologiya." 1970., 3., s. 145. (*****)

الباشكير والكازاخ ، مما يساهم كثيرا فى تحديد موضوعى ودقيقى لهوية الشعوب الناطقة بالتركية وتاريخها القومى .

لكن للأسف الشديد كثيرا ما نجد أنفسنا ضحايا لعبة الاشتقاقات وحيل المصطلحات مثل « ماكرو - اثنونيم » و « ميكرو - اثنونيم » ، مما يؤدى الى التخمين ثم التسويه والادعاءات المختلفه حول اصول بعض الشعوب وماضيها ، وعلى أساس ذلك كله يتم بناء النتائج . ونجد هذا اللبس وخطأ الامور يحص بالدرجة الأولى اسماء الشعوب الناطقة بالتركية . وكلنا نعرف من الأبحاث التاريخية أن سهوب روسيا الجنوبية ومنطقة شمال القوقاز وسواحل بحر أزوف وحوض نهر الدانوب ونهر افونجا وأراضى جمهورية كازاخستان كان يسكنها الليميار والاسقوت والسرمت والسفرومات وشعوب أخرى اختفت لسبب ما فى مكان ما ، أو « تبخرت فى الهواء » دون أن تترك أى أثر لها أو لسلالتها . وفى المنطق نفسها تقريبا ظهرت قبائل الهون والخزار التى اختفت أيضا . ونجد فى نفس المناطق البتشيبيج والقبجاق (البولوفنسى) الذين تبخروا أيضا واختفوا بلا سبب . وإذا كان عند المؤرخين بعض الآراء حول وقت ظهور قبائل الهون والخزار الا أنه من الصعب العثور فى أبحاثهم على الآراء حول وقت ظهور البتشيبيج والبلغار والقبجاق (البولوفنسى) . لقد تراكمت الأسئلة فى التاريخ ومنها : كيف عاشت مثل هذه الاتحادات المتخذة من القبائل المنتهكة وهذا الجعم الوفير من الشعوب المختلفة فى نفس الأزمنة وفى نفس المناطق تقريبا ؟؟

وهنا يلح علينا سؤال آخر : أ تعود كل هذه الاتحادات والتكتلات القبلية الضخمة الى أصل واحد أو جنس واحد ؟؟ ألم تكن قبيلة أو اتحاد القبائل قد غيرت اسماءها الى اسم القبيلة أو اتحاد القبائل المنتصرة ؟؟ ربما يكون هذا بداية لحل المسائل الصعبة والمعقدة . ويبدو أن بعض القبائل والاتحادات القبلية ظهرت مبكرا وبعضها الآخر مؤخرا ، لكن هل كانت تلك القبائل تختلف عن بعضها فى اللغة والعادات والاعتادات وأساليب الحياة ؟ وإذا سلمنا باختلاف كبير بينها فهذا الأمر يتطلب منا أن نجد البقايا لتلك القبائل المتمثلة فى الشعوب الحديثة أو حتى فى عناصر هذه الشعوب . ولدينا معلومات كثيرة حول القبائل الآرية التى كانت تسكن شمال المناطق الآسيوية - الأوروبية قبل القبائل السابق ذكرها بآلاف السنين ، فبقايا لغتهم واعتقاداتهم وطقوسهم متمثلة فى الشعوب الفينية - الأوغورية والسلافية (*) . والمعروف أيضا أن سلالة هذه

Bongard-Levin G. M., Granovskiy E. A. : O l Skifil do (★)
Indii. Zagadki istorii drevnih ariyev., Moskva., s. 124.

الشعوب الآرية هم الفرس وبعض الشعوب الهندية . أما الادعاء بأن الاتحادات الضخمة مثل الكيميار والأسقوث والسرمت قد اُخفيت بحضاراتها تماما ولم تدخل في تكوين الشعوب الأخرى في تلك المناطق ، فهذا الادعاء غير منطقي . ولماذا لم تكن قبائل الهون والخزار والبتنسينيچ والباغار القدامى والقبجاق هي سلالة لتلك الاتحادات القبلية التي دنت تسكن هذه المناطق بعد اختفاء أسمائها (ليس اختفاء الشعوب نفسها) أو اختلاطها بشعوب من أصل واحد ؟ ومما يثير الضحك حقا أننا نعرف كثيرا عن معالم حضاراتها وأساليب حياتها ، لكننا لا نعرف شيئا عن لغتها وأصولها . ربما نحن نبحث في مجال خطأ ونبنى آراءنا عينا على أن هذه القبائل قد اختفت تماما من على وجه الأرض ؟ ألم يوجد في لغة الشعوب الناطقة بالتركية كثير من ألفاظ تلك الاتحادات القبلية لا نستطيع ان نفرق بينها لأن لغاتها لم تختلف تماما . ربما نريد أن نفسر جهلنا بأنه لم يبق شيء من لغاتها ؟ وإذا كان علماء اللغة قد وجدوا آثار الآريين القدامى حتى في لغة الشعوب التي تسكن دولتنا والمناطق الشمالية فمن الصعب ان نسام بأن الشعوب التي كانت تسكن المناطق الأوربية - الآسيوية منذ وقت قريب (اذا قورنت بالآريين) ، قد اختفت تماما ولم يبق شيء من لغتها .

وهناك سؤال آخر وهو : كيف نحدد مفهوم مصطلح « السكان الأصليون » ؟ ان بعض شعوب القوقاز تعود بأصولها الى الآن ، أي انهم من بقايا الآرية . أما بعض شعوب القوقاز الناطقة بالتركية فتعد أيضا من السكان الأصليين ، لكن الخزار والهون والأسقوث شاع عنهم الحديث بأنهم واندون .

وقد تكون الشعوب المختلفة قد أطلقت الأسماء المختلفة على تلك الاتحادات القبلية الضخمة التي أقامت هذه المناطق في نفس الفترات التاريخية تقريبا . وقد تكون أسماء القبائل المختلفة من أصل واحد قد قوبلت وسجلت في التاريخ . كأسماء للشعوب المختلفة أو الاتحادات القبلية المختلفة . ألا يدعوا التلاعب بمصطلحات مثل « ميكرو - اثنونيم » و « ماكرو - اثنونيم » الى السخرية والذي نجم عن عدم معرفتنا ببوية الشعوب ولغاتها وتواريخها ؟

ونقول معظم المؤرخين ان الأسقوث والهون والخزار وفدوا من آسيا أو من الشرق فنزلوا تقريبا نفس المناطق التي تمتد من نهر الارتيش حتى نهر الدانوب عبر الطرق الممتدة شمالى وجنوبى بحر القزوين . وليس هناك مجال للشك في أن هذه القبائل أو الاتحادات القبلية كانت تتحدث لغة واحدة وتشترك في بعض الصفات الأخرى . وقد تكون القبائل

المهزومة قد اندمجت وذابت في القبائل المنتصرة بلا أدنى مقاومة أو صعوبة على أساس هذه القرابة ، ثم بدأت تتخذ اسم القبائل المنتصرة ، فأصبح هذا الاسم معروفا لدى جيرانها أى أصبح اسما حقيقيا لها . وإذا كانت القبائل السابق ذكرها تتحدث لغات مختلفة وتختلف اختلافا كبيرا في عناصرها فمن الصعب أن تغير تلك القبائل لغتها وثقافتها وأسلوبها في الحياة وتقوم بتكوين مثل هذه الاتحادات الضخمة من القبائل الناطقة بالتركية أو بناء الاتحادات الدولية .

ويشير المؤرخون الى أن دولة بلغاريا العظمى ودولة الخزار ودولة الأتراك كانت تشغل تقريبا نفس المساحة ، وتتوارث مقاليد الحكم عقب الصراع ، وإذا تكونت هذه الاتحادات من القبائل المختلفة فأين ذهبت هذه القبائل نفسها التي كانت تختفي مئات السنين ثم تظهر من مكان غير معروف وتشكل دولة جديدة ؟ والتاريخ يعرف حالات الانقراض لبعض الشعوب الصغيرة بسبب إبادتها في الحروب أو من الكوارث الطبيعية أو الأوبئة ، لكن لا يعرف التاريخ انقراض الاتحادات الضخمة ، بالإضافة الى أن هذه الحالات لم تحدث في تاريخ الاتحادات القبلية التي نتحدث عنها وفي تاريخ الشعوب الناطقة بالتركية في آسيا وأوروبا . إذن مثل هذه الأسباب قد تؤدي الى انقراض الشعوب الصغيرة وليس الاتحادات الضخمة ، ولا يستطيع الشعب أن يختفي من وجوده الا في الحالات التي أسرنا اليها . وقد تندمج وتذوب المجموعات البشرية الصغيرة في القبائل أو الشعوب الأخرى ، لكن اذا كان هذا الاندماج يتم بين القبائل الغريبة فقد تنتصر إحدى لغاتها ، أو بمعنى آخر تنتصر لغة القبائل المنتصرة أو المهزومة ، مع أن لغة المهزومين لا تختفي تماما ، فهي تترك آثارها في لغة المنتصرين ، كما يكتسب الشعب المنتصر عناصر لا بأس بها من عادات الشعب المهزوم وثقافته وأساليب حياته . أما اذا تم الاندماج بين القبائل أو الشعوب التي تشترك في لغة واحدة فليس من المعقول أن تظهر بعده لغة جديدة ، بل سيؤدي هذا الاندماج الى إثراء اللغة نفسها بواسطة اللهجات القبلية المختلفة . أما قبائل الهون والخزار والبلغار والقبجاق (البولوفتسي) فكانت ناطقة بالتركية ، ولم تظهر بينها الا لغة واحدة هي اللغة التركية ، أى أن لغة هذه الاتحادات كانت لغة تركية وليست لغة جديدة أو أخرى .

وحيثما نتحدث عن تصنيف اللغات التركية في مناطق شمال القوقاز وحوض نهر الفولجا وأورال وسيبيريا وكازاخستان نجد كل علماء التركيات يتفقون على أن لغة البلكار والقراتشاي والتتار (البولجار) والداشكير والنوغاي والقوميق تدخل في مجموعة لغوية واحدة هي اللغة

القبجاقية • وإلى نفس المجموعة اللغوية تنتسب لغة تثار القرم والجاجاوز والدارايم وتثار رومانيا ، كما تنضم إلى المجموعة القبجاقية لغة الداراخ والقراقلباق الذين يسكنون الآن أراضي تختلف إلى حد ما عن تلك الأراضي التي كان يسكنها أجدادهم ، إذ كان أجدادهم يشغلون قرونا طويلة سهوب روسيا الجنوبية وينضمون إلى أسرة واحدة هي الأسرة القبجاقية • ولذا ذكر « الكلوبوك السمر » الذين يطلق عليهم « قراقلباق » اليوم • كان أجدادهم يسكنون منطقة روسيا الكيفية • وما زالت الشعوب القبجاقية السابق ذكرها تعيش حتى الآن في نفس المناطق التي كان يسكنها الهون والخزار والبلغار والبتشينيغ والتورك والقبجاق (البولوفتسي) والاستقوت والكيميار • ومن ثم فإن الشعوب الحديثة مثل البلكار والقراتشاي والتتار (البولجار) والباشكير والكراخ والجاجاوز والقراقلباق والنقوميق والنوغاي والكارايم وتثار رومانيا ولوانيا ينتمون إلى الأسرة القبجاقية في مجموعة اللغات التركية ، فهم سلالة تلك الاتحادات الدولية أو التكتلات القبلية الضخمة التي كانت تشغل منطقة تجتمع فيها قارتا أوروبا وآسيا • وقد أطلقت عليها الأسماء المختلفة كالهون والبلغار والقبجاق (البولوفتسي) ، فكان هؤلاء يظهرون على مسرح التاريخ في أزمنة مختلفة •

أما إذا نظرنا إلى تاريخ تلك الاتحادات القبلية من ناحية وحدة أصولهم واشتراكهم في نفس اللغة والمادات والتقاليد فلا داع أن نعيد أقاويل « العباقرة » حول أصول هذه الشعوب وماضيها • ونجد على سبيل المثال البولوفتسي يطلق عليهم اسمان : « القبجاق » و « القومان » ، لكن بعض العلماء ينظرون إليهم حتى الآن كأنهم شعبان مختلفان • ونرى ذلك بوضوح في بحث « حباين » الضخم (*) الذي يدور حول لغة القومان كأغمة مختلفة عن باقي اللغات ، كما نجد العالم « بريتشاك » (O. Pritsak) لم يكتب في بحثه عن لغة القبجاق فقط بل، بمنزها عن لغة مماليك القبجاق والقبجاق - الأرمن • وشيء يثير الدهشة حقاً أن المؤلفين لا يميزان لغة الهون والبلغار عن باقي اللغات التركية القديمة في آسيا وأوروبا مثل لغة القبجاق والتورك والكلوبوك والبيرينداي الخ •

وبرى المؤرخون أن القبجاق هم نواة لاتحاد القبائل الذي ضم إلى نفسه الأوز والبتشينيغ والتورك والكلوبوك السمر والبيرينداي الآخرين الذين احتفظوا بأصول اللغة القبجاقية ، ومنهم من احتفظ بعناصر اللغة الأوغوزية وهي أيضاً اللغة التركية (**) • ويجب أن نعتزف هنا بأن اسم

Gabain A. : *Fundamento Turko.* Unesco., Paris., 1958. (★)

Bolshaya sovyetskaya ensiklopediya., 2., t. 24., s. 168. (★★)

القبجاق (البولوفتسى) لم يكن اسما لشعب معين وانما كان اسما شاملا (ماكرو - اثونيم) لمجموعة كبيرة من الشعوب الناطقة بالتركية . وقد اشترك هؤلاء القبجاق (البولوفتسى) فى تكوين شعوب أخرى ناطقة بالتركية لندنها بعيدة عن منطقة السهوب مثل الأذربيجان والتركمان والأوزبك والأتراك وآخرين . وفى فترة قبل الغزو المغولى حين كثرت حملات الروس ضد البولجار (تثار اليوم) قد هربت مجموعة الاسر البولجارية الى المجر واستقرت فى السهوب المجرية التى كانت معروفة باسم « سهوب قومانيا العظمى » . وقد سجلت هجرة البولجار الجماعية مرة أخرى الى منطقة نهر الدانوب والنيسا فى فترة تفكك الامبراطورية الذهبية ، أى حين كثرت هجمات الروس على أراضي البولجار . واذا كانت أصول البولجار تختلف عن القبجاق فمن الصعب أن نجيب على سؤال مثل : لماذا لم يهرب هؤلاء البولجار الا عند بلغار الدانوب والقومان فى المجر والى فرنسا ومقدونيا وبلغاريا ؟ ونستطيع أن نفسر هذا بأن البولجار كانوا على وعى تام بوحدة أصولهم القومية ، وكانوا يعرفون الطرق التى تربط بين بلادهم ، اذ كان لهم صلات تستمر قرونا طويلة ولم تشكل المساحة التى تستغرق آلاف الكيلومترات ، عواقب لهم لتمحى وعيهم بأصولهم المشتركة . واذا لم يكن الأمر كذلك فكان أسهل لهم أن يتجهوا الى شرق أورال أو الى المناطق الجنوبية أى مناطق أقرب لهم وأكثر معرفة .

نحن نعلم أن لغة الشعوب القبجاقية وعاداتها وأساليب حياتها لم تبق بلا تغيير على مر العصور من تاريخها المديد ، فكانت بلا شك تحت تأثير الجيران . لقد حدثت التغيرات فى الأماكن التى كانت تسكنها ، كما حدث التطور الطبيعى لوسائل الانتاج ، لكن هذه التغيرات كانت قليلة الشأن فى ميدان اللغة اذا قورنت بشعوب أخرى . والدليل على هذا أننا لانجد بين لغات المجموعة القبجاقية اختلافا ملحوظا فى المفردات أو القواعد النحوية أو البنية اللغوية نفسها . أما بعض التغيير فى المفردات اللغوية فيعود أساسا الى اقتباس هذه الشعوب من لغة الشعوب المجاورة ، أو الى الاشتقاقات الجديدة لكلمات تركية من جذور مختلفة ، كما نعود أسباب هذا التغيير الى مدى تعلق هذه الشعوب بترائها القومى القديم وحفاظها عليه ، والى حجم استخدام المفردات المقتبسة من اللغة العربية والفارسية .

ونجد مثلا أن لغة الماشكير مفهومة بسهولة عند التثار (البولجار) ولغة التثار قريبة للغاية من لغة القراتشاي والبلكار والقوميقي والوغاز وباقى شعوب المجموعة القبجاقية . واذا حاولنا أن نفسر قرابة لغة التثار والباشكير بالمجاورة فكيف نستطيع أن نفسر قرابة لغة البلكار والقراتشاي

من لغة التتار الذين انفصلوا عنهم بآلاف الكيلومترات في فترة نتجاوز ألف عام؟ وجددير بالذكر أن لغة البلكار والقراتشاي كانت خلال الألف عام تنمو وتتطور بين لغات الشعوب المختلفة عنها تماما ، أما اللغة التتارية فكانت أيضا تنمو وتتطور وسط اللغات الفينية - الأوغورية واللغة الروسية، وكان من المفروض أن يؤدي هذا الى ظهور الاختلاف الكبير بينها . ان الاجابة عن هذا السؤال هي اجابة واحدة تتمثل في وحدة الأصول التي تربط بين تتار اليوم (البولجار) والقراتشاي والبلكار والتي تعود الى البلغار القدامى . أما لغة التشوفاش (هم جيران التتار) التي يضمها بعض علماء اللغة الى مجموعة اللغات التركية ، فتختلف اختلافا كبيرا عن كل اللغات التركية ، لكنها تحنوي على نسبة تتراوح بين ٢٠ - ٣٠٪ من كلمات تعود بأصولها الى اللغة التركية (*) ويبدو أنها مقتبسة منها .

ويشير « جاريبوف » (T.M. Garipov) في بحثه المقارن بين لغات منطقتي أورال والقوقاز الى أن اللغات التركية (ما عدا اللغة التشوفاشية) تتضمن على الوحدة السيمانتية (الدلالية) وأن ما يقرب من ثلثي في المائة من مفردات اللغة التتارية والباشكيرية تشترك فيما بينها في البنية الصرفية والنحوية وفي النطق مما يؤكد وحدة أصولها (**) . ويؤكد العالم « فاسييف » على أن « لغة شعوب مثل التتار والباشكير والكازاخ والقوميق والنوغي قريبة للغاية » (***) ، فهي تحتوى على ما يقرب من ٧٠ - ٨٥٪ من الكلمات المشتركة التي تعود بأصولها الى اللغة التركية . ونجد كلا المؤلفين يتحدثان عن لغة شعوب المجموعة القبجاقية التي ما زالت تشغل حتى الآن تلك المناطق التي كان يشغلها الهون والخزار والبلغار والقبجاق (البولوفتسي) من قبل . واذا قمنا بدراسة مقارنة بين لغة البلكار والقراتشاي ولغة التتار والباشكير نستطيع أن نتأكد بلا شك من القرابة بينها .

تسمية « التتار » وقوة ثباتها

سبق الحديث عن أصول تسمية « التتار » و « التتر » وعن دور الصين وأوربا في فرض هذه التسمية على الشعوب ، ثم أشرنا الى الاستخدام العنصرى لهذا المصطلح ونتائج ، كما سبقنا الإشارة الى أن الروس عقب

(*) Fascev F. S. : Opit sravnitelno — statesticheskogo issledovaniya leksiki tatarskogo yazika., Voprosi tatarskogo yazika i literaturi., Kn. 4., Kazan., 1969., s. 46.

Sovetskaya turkologiya., 1974., 2., s. 105.

(**)

Faseev F. S. : op. cit., s. 46.

(***)

سيطرتهم على اماره قازان كانوا يعرفون سكانها لمدة طويلة باسم « بولجار » ، وكانوا يطلقون عليهم أيضا اسم « قازانيون » فيميزونهم بهذا عن « التتار » . لكن تلك الفترة وخاصة عند توتر العلاقات بين قازان وموسكو ، كان الأمراء الروس ورجال الكنيسة لا يتورعون عن سب أهل قازان باسم « التتار » معبرين بذلك عن كراهيتهم لهم . وعقب سقوط اماره قازان كان الأهالي يقاومون بشدة سياسة قياصرة الروس الاستعمارية . وكثيرا ما حملوا السلاح من أجل الحرية والاستقلال ، اذ لم يقبلوا سياسة التنصير التطوعى (أى الاختيارى) ، لأنهم كانوا شعبا متقدما يملك حضارة عميقة وادراكا كاملا بوحدة كيانهم الشعبى وعاداتهم واعتقاداتهم . وعقب القضاء على استقلالهم كانوا يقاومون بشدة وعلى سر العصور سياسة النظام القيصرى التى كانت ترمى الى تذويبهم فى بوتقة الروس . وقد أدت هذه المقاومة الى سحق وعدوان رجال السلطة المركزية والكنيسة الأرثوذكسية وشن حملات اضطهادية جديدة ضد سكان المنطقة المسلمين ، كما أدت هذه المقاومة الى الضغوط الاقتصادية ومطاردة ثقافة الشعب ولغته وعاداته وتقاليده . وكان نشاط « التتار » فى حركة النضال من أجل الحرية تحت قيادة الثوار الروس مثل « بولافين » و « رازين » و « بوجاتشوف » يثير قلقا شديدا للقياصرة وحاشيتهم . كما كانت مهارة تجار التتار فى ظروف غير متكافئة فى مزاحمة التجار الروس فى الأسواق الشرقية ، ووعيهم القوى بأصولهم ، وكفاحهم من أجل التقدم الحضارى والثقافى وذلك بتوفير المكتبة والمدرسة فى كل قرية على وجه التقريب ، ثم كفاحهم من أجل انشاء الصحافة القومية واستمرار علاقاتهم الثقافية التقليدية مع شعوب الشرق الاسلامى ، أو باختصار شديد رفضهم للهيمنة الروسية ، وادراكهم العميق لأصولهم القومية كان يثير قلقا شديدا لدى السلطة المركزية والكنيسة والمبشرين . وقد أدى ذلك كله الى موجة جديدة من الضغوط الاقتصادية والحملات الاضطهادية ، ثم تطبيق سياسة العشو الايديولوجى على الشعب الروسى ضد « التتار » التى كانت تستهدف تقديم « التتار » فى صورة أعداء المسيحية وأراضى الروس « المقدسة » : وفى مثل هذه الظروف بدأت حملة التشهير بأهل قازان أمام الجماهير المسيحية بأنهم سلالة الغزاة المغول الذين أحرقوا ونهبوا الأراضى الروسية ، واضطهدوا الروس ما يقرب من مائتى عام ، وهذا بالإضافة الى اتهامهم فى حركة بان - تركية (الجامعة التركية) وبان - اسلامية (الجامعة الاسلامية) . وهكذا تم استخراج - من أرشيف التاريخ - صورة « البعيع » أو الوحش الكريه التى بدأت تستخدم فى اطار قبيح لتخويف الناس والقاء الضباب على الوعى الجماهيرى . وما أن قامت هذه الحرب الايديولوجية الضروس حتى وجد مؤرخو الامبراطورية ومبشروها واجبا « وطنيا » أن يشتركوا بأى وسيلة

أو أسلوب في مطاردة: لغة « التتار » وثقافتهم ومؤسستهم التعنيمية وصحافتهم ، وتعطيل مصالحهم ، وسلب حقوقهم الانسانية . وكان هؤلاء « الوطنيون » يفسرون الوعي القومي المتزايد بأنه خطوة جديدة لاعداد الحملة « التتارية » على اراضي الروس .

وكان مؤرخو النظام القيصرى بعلمائه ومبشريه وفلاسفته الذين تشربوا روح العنصرية والتشوفينية الوطنية ، يرمون بكافة الوسائل الى اثارة الشعور بالاشمئزاز لدى الشعب الروسى تجاه « التتار » ، وذلك باحياء أشباه الجيوش التتارية فوق الاراضى الروسية سابقا .

وعقب تفكك الامبراطورية الذهبية قامت فوق اطلال دولة بولجار الفولجا دولة جديدة ، وبدأ المؤرخون الروس الرسميون يرمون الى ربط ظهور هذه الدولة الجديدة بالامبراطورية الذهبية التى بقيت آثارها فى ذاكرة الشعب الروسى ، وبدأوا يشبهون سكانها بالمغول - التتار . ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء « التتار » كانوا مسلمين ، - اذن فهم أعداء الديانة المسيحية ، لأن وفق تعاليم رجال الكنيسة أن كل الناس غير المسيحيين « كفرة » و « همجيون » و « أنجاس » . ومن هنا عظم شأن تسمية « التتار » بواسطة « الوطنيين » الذين كانوا فى خدمة الحكومة القيصرية ورجال الكنيسة . وقد اكتسبت هذه التسمية فى روسيا أيضا دلالة مهينة تقلل من شأن حاملها مثلما كان الأمر فى أوروبا والصين . وكانت كل هذه الاجراءات ضد « التتار » تخدم فى رأيهم تنمية روح الوطنية لدى الشعب الروسى وتنمية الكراهية تجاه « التتار » ، كما كانت هذه الاجراءات تبريرا لسياسة قياصرة الروس العنصرية والاستعمارية فى منطقة الشرق .

ونجد حروب روسيا من أجل السيطرة على شواطئ البحر الأسود فى العصور التالية ، ثم حروبها مع امارة القرم والدولة العثمانية التى انتهت بضم مناطق تسكنها الشعوب الناطقة بالتركية الى الامبراطورية الروسية ، قد أدت الى تسمية تلك الشعوب أيضا باسم « التتار » . وكان يجب فى ذلك الوقت ألا توصف جرائم السلطات الروسية فى تلك المناطق أمام الراى العام بأنها سياسة استعمارية ، فقد وصفت بأنها اجراءات الانتقام أو الأخذ بالثأر التاريخى من ماضى « التتار » . وكلما أخذ السلاح الروسى يتغلغل الى مناطق الجنوب والشرق بدأت تسمية « التتار » تنتشر وتطلق على كثير من شعوب القوقاز وسيبيريا وآسيا الوسطى ، وكان من ضمنها شعوب غير ناطقة بالتركية .

ثم ضموا الى التتار « البولوفتسى » الذين كانوا يسكنون سهوب روسيا الجنوبية وأراضى روسيا الكيفية قبل الغزو المغولى ، والذين شاركوا الروس فى الحروب ضد الغزاة المغول . ونجد فى الأبحاث

التاريخية الجديدة وفي الكتب الأدبية أن القبحاق كانوا يعانون أكثر من الروس في موقع « كالكأ » حيث كان يتم القضاء بالسهم على كل النجرجي المصابين أثناء المعارك (*) . أما بالنسبة لهذا التعميم الواسع لتسمية « التتار » واستخدامه الخاطيء فقد كان يتغذى بتقاليد سواد الشعب الروسي الذي رأى كل شيء شرقي إسلامي غير مفهوم لديه تتاريا . فنجد مثلا في التراث الشعبي الروسي للقرنين السابع عشر والثامن عشر تنتشر بصفة مطلقة ظاهرة تسمية اللغة التركية باللغة التتارية (**) . ومن الحق أن نقول ان العالمة الروسية « بلاجوا » قد أشارت في بحثها الى أن كلمة « التتار » قد انتقلت من الروس الى أوروبا ، لأن العلماء والكتاب الأوربيين كانوا يستمدون معلوماتهم عن « التتار » من الروس أنفسهم منذ قديم الزمان . وكانت تقاليد الكتابة الأوربية تؤيد بلا شك الاستخدام الواسع لتسمية « التتار » الذي استمر قرونا طويلة في روسيا ، باعتبارها تسمية شاملة لعدة شعوب (***) . وهنا بقي أن نضيف شيئا واحدا : هو أن التدوين الروسي في مادة التاريخ منذ القرن السادس عشر حتى التاسع عشر هو المسئول الأول عن غرس اسم « التتار » وانتشاره بمعنى مشوه وكريه في البلاد الأوربية .

ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين حين أخذت النهضة الاجتماعية والقومية عند التتار في الظهور تحت تأثير نضال الشعب الروسي من أجل الحرية ، بدأت موجة تقوية التعبئة الايديولوجية للمسيحيين الروس وتوجيههم ضد « البوسورمان » أي المسلمين التي كانت ترمي الى اثارة العداوة بين الشعوب وعرقلة الحركة الثورية المتزايدة في البلاد . ولم ترض السلطان الروسية عند اجراء ذلك من خزانة الدولة ، ولم تتوقف عن تشويه الحقائق .

ونجد « زنامينسكي » (P. Znamenskiy) رئيس الاكاديمية الدينية المسيحية بمدينة قازان وأحد مفكري حركة التعبئة المسيحية ضد المسلمين ومنفذيها الذي لا نستطيع اعتباره متعاطفا لوضع التتار اطلاقا ، يقول في كتابه : « هم (التتار) يتجنبون الروس وينفرون منهم » ، ثم يمضي الكاتب ويفسر في نفس المكان أسباب تلك الظاهرة قائلا : « لا شك في أن الذنب يعود الى الروس أنفسهم بسبب معاملتهم السيئة تجاه التتار ، ولم يستثن من ذلك حتى أولئك الذين اعتنقوا المسيحية . وكثيرا ما نسمع من أفواه الروس الألفاظ النابية والمخزية مثل « اللوح التتاري » و « الكلب » وما الى ذلك ، ولم نشهد هذه المعاملة الا تجاه

Suleymenov O. : Az i ya., Alma-Ata, 1975, s. 1621165. (★)

Blagova G. F. : Varianti zaimstvovaniya., s. 105-106. (★★)

Ibid., s. 103. (★★★)

التتار ، أما الآخرون فلا يجيز الروس تجاههم الا دعابة أو نكتة طريفة ، ويشرح الكاتب أسباب سوء معاملة الروس تجاه التتار قائلا : « ان أسباب هذه الكراهية نستطيع ايجادها في تاريخ العلاقات الروسية - التتارية ، والآن هي كثيرة أيضا . وقد يكون السبب الرئيسى هو صمود التتار أمام الروس ، لأن التتارى يفتخر بأصالته وديانته وثقافته وأخلاقه . لقد أثار التتار بصمودهم أمام جهود المبشرين ورجال السلطة الروسية الاضطهاد الحقيقى ضد أنفسهم الذى ما زالت كوارثه تحكى وتنقل عبر الأجيال الى الآن . وكان الأسقف « لوكا كاناشيفيتش » (Luka Kanashevich) يأخذ أطفال التتار فى مدارس الدينيىة قهرا ، ويأمر بهدم المساجد وفك بقايا المنشآت البولجارية التى كان التتار يقدسونها . أما السلطات الروسية فكانت تمنح الامتيازات المختلفة لهؤلاء التتار الذين ارتدوا عن الاسلام ، وكانت تضطهد بكافة الوسائل المسلمين (أى التتار المسلمين) ، فتمنع بناء المساجد الجديدة وتقوم بهدم بعض المساجد القديمة واثقال كواهل المسلمين الصامدين بالضرائب والاتاوات الاقطاعية أو طردهم الى مناطق أخرى وخاصة سيبيريا » (*) . وهذه السطور التى كتبها أحد مفكرى الحركة التبشيرية رغم سكوته وعدم اقصاحه عن كثير من أشكال الاضطهاد وأساليبه الموجهة ضد الشعب التتارى ، تقدم لنا تصورا لمطاردة التتار ومدى قسوتها لمجرد أنهم كانوا مسلمين يطلق عليهم اسم « التتار » . وهكذا نجد أن التدوين التاريخى لسياسة النظام القيصرى والكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا بما يحمل فى طياته من العنصرية قد « تحول الى الاهانة والاستهزاء القومى ضد التتار » (**).

وكان « الوطنيون » أى خدم السلطات المركزية المخلصون بمدينة قازان يعلمون جيدا أن هؤلاء « التتار » ليس لديهم أى صلة تربطهم بالغزاة المغول ، وهذا ما كتب عنه « زنامينسكى » نفسه : « ان « التتار » يسمون أنفسهم « بولجار » محددين بهذا صلتهم المباشرة بالبولجار » (***) .

أما رجال الحكومة المركزية الذين قاموا بتدوين تاريخ دولة البولجار منفصلة عن تاريخ امارة قازان وكأنهما دولتان لشعبين مختلفين ، فهم أصحاب النظرة المقصودة والنظرية الملفقة ، لأن اعترافهم بأن التتار هم سلالة مباشرة للبولجار (بلغار الفولجا) الذين بنوا حضارة يعرفها العالم ، كان سيؤدى الى صعوبة تسميتهم بالفاظ مثل « همجيون » و « أنجاس »

Znamenskiy P. : Kazanskiye latari., Kazan. 1910., s. 36. (★)

Alishev S. H. : Tatarsi Srednego Povoljya v. Pugachevskom vosstanii. Kazan., 1973., s. 49. (★★)

Znamenskiy P.: op. cit., s. 4. (★★★)

و « مشخلفون » ، وتقديمهم بهذه الصورة أمام شعوب أخرى • واسترضاء الحكومة القيصرية تم تشكيل الرأي العام بواسطة فصل التتار عن البولجار كشعبين مختلفين • وكان هذا الرأي ينص على أن التتار ليسوا سلالة البولجار وأن حضارة دولة بلغاريا على ضفاف نهر الفولجا لا تمت بصلة ما إلى التتار ، وعلى هذا الأساس تمت محاولة اسناد هذه الحضارة إلى شعب آخر اعتنق المسيحية •

وابتداء من القرن السادس عشر الميلادي وتحت تأثير الحملة الدعائية ضد التتار ظهر في الأدب الروسى تيار يتمثل فى الأدب الشعبى الوطنى الموجه ضد التتار الذى ازدهر فى القرن الثامن عشر واستخدم بدهاء شديد كمصدر لادعاءات المؤرخين والأدباء الرسميين •

لقد تركت هذه الدعاية بصماتها على تشكيل الوعى الجماهيرى ، وما زالت آثارها وراثة حتى الآن وتظهر فجأة فى الحياة اليومية أو فى مؤلفات بعض الكتاب وأبحاث بعض المؤرخين • وعلى الرغم من أن أمثلتها كثيرة فسنكتفى هنا بضرب مثل واحد ، فنأخذ على سبيل المثال بحث العالم الجامعى فى التاريخ « كارجالوف » الذى تولت نشره دار النشر « ناوكا » (Nauka) مرتين وباعداد هائلة تحت عنوان « على حدود السهوب » (١٩٧٣ م) ، حيث تبدأ سطورہ الأولى كالآتى : « عدة قرون استمرت بطولة الشعب الروسى وشعوب دولتنا الأخرى فى نضالها ضد الغزاة المغول - التتار ثم الامارات التتارية العدوانية التى توارثت هذا المجد المشين • وكان سقوط مدينة قازان فى عام ١٥٥٢ م • بمثابة القضاء على عش الصعاليك فى حوض نهر الفولجا » (*) • وهذه السطور التى نود أن نؤكد عليها ، توضح لنا ثبات واستمرارية التقاليد القديمة لتلك الظنريات والآراء التى ليس لها أساس من الصحة والتى أشرنا إلى أسبابها ومصادرها من قبل • ونستطيع أن نذكر مؤلفات أخرى لهذا المؤلف مثل « الغزو المغولى - التتارى على روسيا » (١٩٦٦) و « الشعب البطل » (١٩٧١) حيث يتم الخلط بين التتار (البولجار) والغزاة المغول • وهكذا نجد المؤلف يرى تنار اليوم سلالة مباشرة لهؤلاء الغزاة ويسمى وطن البولجار بعش الصعاليك ويتفوق بذلك على جميع مؤرخى الحكومة القيصرية قبل قيام الثورة • لقد كنا حريصين من قبل على أن نبشیر الى مثل هذه الآراء التى تؤدى الى تشويه الحقائق التاريخية ، وتفسد روح المحبة الحقيقية بين الشعوب وتغرس فى نفوس الناس عناصر الحقد والشوفينية الوطنية •

ونعود مرة أخرى الى مؤلفات المؤرخين فى روسيا لننظر الى الحقائق

التاريخية نظرة موضوعية ، مما تتطلبه منا الأمانة العلمية والواحب
الإنساني . وعلى الرغم من أن هذه الرحلة في تاريخ العلاقات بين الدول
والشعوب غير ممتعة إلا أنها تلج علينا كضرورة لاثبات الحقيقة .

وبصدد هذا نجد المؤرخين مثل «كارامزين» (Karamzin) —
و «سولوفيوف» (Solovyev) و «كلوتشيفسكي» (Kluchevshiy)
يصفون في مؤلفاتهم أكثر من ثلاثين حملة للصعاليك الروس والأمراء
الروس على أراضي البولجار ومدينة قازان . وأثناء كل هذه الغارات
كانت تدمر المدن والقرى ، وتعرض البلاد للسلب والنهب ويقتل ويؤسر
كثير من أهاليها . وكان البولجار مضطرين أحيانا أن يردوا لهم بمثل هذه
الزيارات على الأراضي الروسية ، لكنها لم تتجاوز ست أو سبع حملات
وفق معلومات العالم الأكاديمي «جريكوف» (*) المتخصص في دراسة
تاريخ الدولة البولجارية وإمارة قازان ، و «سميرنوف» (**) الذي
ذكرناه من قبل ، و «شبيلينسكي» (***) ، و «شمارين» (****)
وآخرين ، ووفق المخطوطات الروسية . ولم تكن هذه الحملات كما تؤكد
المصادر التاريخية إلا ردا على الغارات الروسية الوحشية . ويقول
«سميرنوف» في كتابه : «ان أهالي مدينة نوفجورود (Novgorod)
قاموا في عام ١٢٦٠ م . بسلسلة من الحملات على أراضي البولجار ، فكان
هذا بمثابة الخطوة الأولى للغزو الروسي المخطط على أراضي المناطق
الشرقية . وكانت كل حملة يعقبها غارة الصعاليك الروس . واعتاد
سكان «نوفجورود» حملاتهم على أراضي البولجار منذ القرن الرابع عشر
الميلادي . وحين رأى الأمراء الروس نجاح غارات الصعاليك الدائم التي
كانت تنتهي بلا عقاب ، قرروا أن يشنوا حربا ضد الأمراء البولجار .
وقد استمرت هذه الحرب لفترة امتدت بين القرنين العاشر والثاني عشر
الميلادين ، (*****) . ويصف مؤرخ آخر طبيعة هذه الحملات قائلا :
«ان حملات الأمراء الروس في القرن الثالث عشر الميلادي اتسمت بطابع
وحشي . وتميزت عن الحملات السابقة بوقاحة أكثر» ، «كان البولجار
يردون أحيانا على تلك الحملات الوحشية ، كحملتهم على مدينة
«اوسنيوج» وتدميرها . إلا أن الانصاف التاريخي يتطلب منا أن نعترف

(*) Grekov B. G. : Voljskiye bulgari v 9-10 vekah, Istoriches-
kiye zapiski., t 14., 1945., s. 3-37.

(**) Smirnov A. P. : Vojskiye bulgari., M., 1951.

(***) Shpilevskiy S. M. : Drevneyshiye goroda i drugiye
bulgaro — tatarskiye pametniki v Kazanskoy gubernii., Kazan 1877.

(****) Ashmarin N. I. : Bolgari i chuvashi Kazan 1902.

Smirnov A. P. : op. cit., s. 63, 70.

بأن أراضي البولجار أتت للروس بفوائد أكثر من الأضرار » (*) .

ونريد أن نشير هنا إلى أن كلا الطرفين لم يكونا ملائكة أثناء حملتهما ، لأن حديثنا مرتبط بفترة الحروب الاقطاعية وما يترتب عليها من السلوك الوحشي . لكن العلاقات بين الدول والشعوب لا تقوم على الحروب وحدها ، مما يؤكد علاقة البولجار وأهالي قازان بجيرانهم . و « يتراءى ذلك بوضوح عندما نتأمل في المخطوطات الروسية رغم أنها تحمل طابعا واحدا . ولم تذكر هذه المخطوطات حملات أهالي قازان على أراضي التشوفاش والماري والموردفا والأودموزت ، ولم تذكر حروبا بين شعوب أواسط حوض نهر الفولجا . أما حملات أهل قازان الاقطاعية على أراضي الروس فكانت لا تقام الا في سنوات الحرب المعلنة بين الدولتين . ولم تذكر حالة الحروب الدائمة » (**) .

وعند حديثنا عن تلك الحروب ينبغي ألا ننسى أنها كانت حروبا اقطاعية وليست حروبا بين الشعوب ، فهي ظاهرة عامة اعتدنا أن نراها في تاريخ كل الشعوب للقرون الوسطى . ويجب أن ننظر إليها بهذا المفهوم ، وليس بأنها حروب ضد « عش الصعاليك » .

والمعروف أن المخطوطات لم تسجل الا الفترات العصبية في التاريخ مثل الحروب أو التغيرات في حياة بعض الشعوب ، فنجد فيها معلومات عن بطولات قائد معين أكثر من تفاصيل عن الحياة السلمية للدول على مر العصور . ومن هنا يجب أن نأخذ في الحسبان دائما أن المؤرخين هم أولاد زمانهم ومكانهم أي هم خدم لحكوماتهم أو الطبقات الحاكمة وكل ما يرتبط بايديولوجياتها . ومن ثمة فإنهم كانوا يبررون دائما سلوك جانب معين ويعلقون كل « الذنوب » على شناعة الأعداء ، أما سلبياتهم فيستترون عنها ، ويشبهون عن قصد أسباب الخلافات ، ويعملون على تضخيم « شر » الغرباء . ونجد معلوماتنا حول علاقات روسيا بدولة البولجار في حوض نهر الفولجا ثم بامارة قازان تعتمد تقريبا كلها على المخطوطات الروسية واستنتاجات مفسريها . وقد أدى ذلك إلى تشويه الحقائق ، وهذا ما تؤكد قضيتنا المطروحة التي تدور حول تسمية « التتار » .

لقد قهر المغول شعوبا كثيرة ومن بينها شعوب سلافية وتركية . وكان يتم تجنيد صبية الشعوب المقهورة ورجالها في صفوف جيوش

Firsov N. N. : Chteniya po istorii Srednego i Nijnego Povoljya. Kazan., 1975., s. 173. (*)

Alishev S. H. : Prisoyedineniye narodov Srednego Povo'jya k Russkomu gosudarstvu. V kn. Tatariya v proshlom i nastoyashem. Kazan., 1975., s. 173. (**)

الغزاة . وعقب هزيمة روسيا تم تجنيد كثير من الروس في جيوش المغول الذين اشتركوا بدورهم في اخضاع دول كثيرة وقهر شعوب أوروبا وآسيا (*) . ويشير المؤرخ « جروم - جريمايلو » الذي اعتمد على المصادر الصينية والأوربية ، الى « جالية روسية عددها عشرة آلاف نسمة بجوار جبال مدينة بكين في عام ١٣٣٠ م » (**) . ولم تستقر هذه الجالية داخل الامبراطورية الذهبية ، بل في منطقة قريبة من المحيط الهادئ ، تفصلها آلاف الكيلو مترات عن مراكز الروس . ومن ثم فليس من الصعب أن نتصور في ضوء هذه الحقائق كلها أن عدد المحاربين من أصل روسي في جيوش المغول كان كبيرا للغاية . ويشير المؤرخ الروسي في كتابه قائلا : « ان الامبراطورية الذهبية لا تستطيع أن تسمى بالدولة التتارية الانسبيا » لأن جيوشها كانت « تتكون من الشعوب المقهورة مثل الروس والتركس والقبجاق والدجار وآخرين » (***) لذلك نجد ادعاءات بعض المؤلفين بأن جيوش الامبراطورية الذهبية تكونت من القبجاق المقهورين ، ليست واقعية فهي أقرب الى شطحات الخيال . ويشير المؤرخ « جروم - جريمايلو » دون قصد الى أن القائد المغولي « باطى . قد أصدر أكثر من مرة أوامره بقتل كل الأسرى القبجاق حتى أطفالهم » . بينما لم يقتل الأسرى من النساء والأطفال وأصحاب الحرف في أيام حكم جنكيز خان . « ومن ثم فإن السهوب القبجاقية خلت من سكانها عقب الابادة الجماعية ، وأخذت العناصر السلافية تفلد اليها من الغرب لتسكنها ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي » (***) .

ويبدو أن البولجار جندو أيضا في الجيوش المغولية ، لكن هذا لا يعطينا حق اعتبارهم من سلالة التتار وكذلك بالنسبة للروس . وقد بدأت ظاهرة الخلط بين المغول والتتار تنتهى بعد قيام الثورة البولشيفية ، لكن في فترة الحرب العالمية الثانية حين أصبحت التعبئة الايديولوجية من أهم قضايا الدولة ، قام عدد كبير من المؤلفين بتمجيد بطولات الشعب الروسى وكفاحه ضد الغزاة الأجانب في الأيام الماضية . ومن هنا حدث شيء غريب اذ بدأ الخلط بين المغول والتتار يشته من جديد . وفي تلك الفترة العصيبة أى في سنوات المحن الضارية لم يكن التدخل فى مثل هذه القضية أمرا مناسبا . وبدأ المؤلفون في تصويرهم لكفاح الشعب

Zakirov S. : Diplomatische otnosheniya Zolotoy Ordı (*)
i Yegipta. Moskva., 1966., s. 15.

Gumilev L. : Poiski vimishlennogo tsarstva., M., 1970., s. 219.

Grumm-Grimaylo G. Y. : Zapadnaya Mongoliya i Uryan- (**)
hayskiy kray. t. 2., L., 1826., s. 518.

Nosov A. N. : Mongoli i Rus., M-L., 1940., s. 53. (***)

Grumm-Grimaylo G. Y. : Zapadnaya Mongoliya., s. 465. (****)

الروسي يستخدمون على نطاق واسع المصطلحات مثل « النير التتاري » ، و « الغزاة التتار » ، وهذا بمثابة المرادف للفظ « المغولي » . لكن بعد انتهاء الحرب تم الاعتراف بأن هذه الظاهرة خاطئة . وعقد المؤتمر العلمي الذي تناول قضية أصول تتار اليوم والذي ذكرناه من قبل . غير أن نتائج هذا المؤتمر بقيت خارج اهتمام المؤرخين ، ولم تصل إلى الجماهير الواسعة من القراء ، لذلك بدأت التقاليد القديمة في خلط التتار مع المغول تزدهر مرة أخرى منذ خمسينيات هذا القرن .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كثيرا ما سمع مؤلف هذا الكتاب من أفواه المرشدين أمام الوفود السياحية في القرم ومولدوفيا وآسيا الوسطى وأوكرانيا والقوقاز وحوض نهر الفولجا عن ماضي هذه المناطق ، وكيف تعرض أهاليها لوحشية الغزو « التتاري » ، وكان هؤلاء المرشدون يتناسون إضافة لفظ « المغولي » . ونفس الشيء نجده في الكتيبات السياحية سواء أكانت باللغة الروسية أم لغات أخرى ونجد في المكتبات والمعارض كروتا للرسامين الكبار بالمنظر الرائعة ومن بينها منظر « التتار » الغزاة للرسام « أندري روبليوف » (Andrey Rublyov) مع السطور المناسبة لها دون ذكر لفظ « المغول » فيها . كما نجدهم يقدمون في بعض برامج الإذاعة والتلفزيون وبعض الأفلام السينمائية تتار اليوم وكأنهم المغول . أما الأطفال فيتلقون بدورهم في المدارس معلومات خاطئة عن التتار أي أنهم الغزاة المغول مما أدى إلى اشتباكات عنيفة بين طلبة المدارس الروسية - التتارية ، والمدرسون يعلمون هذا جيدا . ولم يذكر في كتب التاريخ المدرسية وحتى الجامعية على الهوامش أن تتار اليوم ليست لديهم أي علاقة بهؤلاء التتار الذين تتحدث عنهم تلك الكتب .

وهكذا نرى أن أي خلط بين التتار والمغول واستخدام كلا المصطلحين بلا ضابط أو رابط سيؤدي إلى التصور الخاطئ بأن تتار اليوم هم سلالة المغول ، لأنه لا يوجد في أيامنا هذه سوى شعب واحد يحمل اسم التتار ويعرفه القاري . وليس لدى القاري ما يسعه من الوقت للتفكير أو الاهتمام بأن تتار اليوم يختلفون عن التتار الغزاة . ثم هناك ظلال أخرى لهذا الخلط أو الاستخدام الخاطئ للمصطلحات ، إذ نجد بعض الشباب التتار يفخرون من قبيل رد الفعل بسلوك المغول وبمقارنة شعبه بهؤلاء الغزاة .

وكانت العلاقات بين الروس وبولجار مدينة قازان قائمة على حسن المجاورة والصداقة والتعاون منذ زمن بعيد ، مما لم يستطع أن يمحي ذكرها حتى وقوع بعض الخلافات والمناوشات . ونجد المخطوطات الروسية تصف غالبا العلاقات السلمية بين الشعبين . ويشير العالم الأكاديمي

« جريكوف » فى كتابه الى هذا قائلا : « ان المخطوطات الروسية تحمل طابعا واحدا عند حديثها عن دولة البولجار ، ولم تذكر تقريبا وفوق الاشتباكات الحربية بينها وبين روسيا مع أن هناك بعض الاستثناءات الشيقة » (*) . أما فى سنوات الجذب والمجاعة فى روسيا فكان البولجار يسارعون الى مساعدة جيرانهم بإرسال عشرات السفن المشحونة بالخبز البولجارى الى الشعب الروسى الجوعان ، وكان المعماريون البولجار يشيدون فى المدن الروسية كنائس ومنشآت رائعة . وكانت العلاقات التجارية والثقافية والاقتصادية بين الشعبين قريبة للغاية . وكانت جاليات روسية تقيم فى الدولة البولجارية ومدينة قازان وتحارب مع البولجار جنبا الى جنب ضد الغزاة الأجانب . وكان كلا الطرفين يستفيدان من بعضهما ، ويقتبسان من بعضهما العادات والمناسك والمفردات اللغوية ، لذلك نجد الشاعر التتارى عبد الله طوقاى يقول :

« نحن شعب عريق وذو شهرة على الأراضى الروسية
نحن أصفياء كالمرآة فى التاريخ

نعاشى الشعب الروسى منذ قدم تربطنا الصداقة
نتعلم من بعض ونتبادل عادات وألفاظ وخبرات (**) .

ويصف العالم الاكاديمى « جريكوف » العلاقات القائمة على الصداقة وحسن التجاور بين البولجار وأهل مدينة قازان وبين الروس قائلا : « لم تكن الخيوط الحربية بل التجارية والثقافية تربط بين الجانبين » (***) . وهناك « كونونوف » عالم التركيات المشهور وهو عالم موسوعى فى التاريخ والمتخصص فى ثقافة ولغة الشعوب الناطقة بالتركية ، يشير فى كتابه قائلا : « ان العلاقات المباشرة التى كانت تربط القبائل السلافية والروس مع مختلف قبائل منطقة الشرق واتحاداتها وفى قائمتها القبائل الناطقة بالتركية التى كانت تسكن سهوب روسيا الجنوبية وحوض نهر الفولجا وشمال جبال القوقاز وشبه جزيرة القرم ، قد تركت آثارها فى كيان ولغة وأساليب حياة أجدادنا . أما رأى السبائد والمنتشر عن العداوة المستمرة بين الروس والشعوب الناطقة بالتركية فهو غير صائب وليس له أدنى صلة بالحقائق ووقائع الأمور » (****) .

وكان الجهل والآراء المسبقة التى أصبحت فيما بعد بمثابة مصادر

-
- (*) Grekov E. D. : Voljskiye bulgari., s. 14.
 (**) Tukay G. : Eserler., t. 3., Kazan. 1955., s. 243.
 (***) Grekov B.D. : Voljskiye bulgari., s. 16.
 (****) Ikononov A. N. : Iz istorii izucheniya turkiskih yazikov v Rossii, V kn. Bibliograficheskiy s'ovar otechestvennih turkologov. Dooktyabrskiy period., Moskva 1974., s. 9.

« حقيقة » ، يلعبان دورا لا بأس به في التشييد ظاهرة الخلط الخاطئ بين التتار والغزاة المغول . ومن ثمة فإن العالم الروسى الشهير في علم التركيات « جريجوريف » يشير - وهو على صواب - الى أن المصادر الشرقية ومؤلفات المؤرخين الشرقيين لم تكن معروفة في روسيا أو أوروبا ، وإذا عرفت فمعرفة سطحية ، لأن الأوربيين كانوا يعدون أبحاثهم ومؤلفاتهم خرافة . وكانت ترجمة الأوربيين للمصادر الشرقية مليئة بالأخطاء وهذا بسبب عدم معرفتهم لحضارة شعوب الشرق ولغاتها . أما اذا تناقضت المؤلفات الشرقية مع مؤلفات الاغريق القدامى فلم تؤخذ أو تؤمن بها ، لأن المصادر الاغريقية كانت في ذلك الوقت موضع الإعجاب وفي مرتبة التقديس . وكانت المراكز الأوروبية ترى كل شيء غير مذكور في المؤلفات الاغريقية ليس جديرا بالثقة أو الاهتمام » (*)

ونريد أن نضرب مثلا بين أي مدى أصبح الانتساب الى اسم « التتار » اهانة لأى شعب ، ذلك الاسم الذى وصف فى التاريخ بالوان صارخة وخطوط عريضة . هناك العالم « زهيدوف » وهو الأستاذ الجامعى فى العلوم التاريخية بجمهورية أوزبكستان ، يعلن فى كتابه بصراحة ووضوح : « يجب علينا أن نعارض بشدة كل محاولة انتساب الشعب الاوزبكى الى القومية التركية » (**) . فهو يعنى « انتساب » الأوزبك الى الشعوب التى انحدرت من القبائل التركية . والمعروف أن بقايا جيوش جنكيز خان قد استقرت فى آسيا الوسطى والهند بعد انهيار الامبراطورية الذهبية ، وفرضت سيطرتها على شعوب هذه المناطق المقهورة . وكانت نسبة تلك الشعوب الى اسم « التتار » فى التيدوين التاريخى ظلما صارخا مثلما يحدث لتتار اليوم . لذلك يتجه العالم الاوزبكى المذكور تحت تأثير الانفعالات الى التطرف حين يطالب بعدم انتساب الأوزبك الى الشعوب التركية .

ونريد أن نضرب مثلا آخر ، لكنه هذه المرة من ماضى بعيد . كان القسيس « جريجوريف » وهو من البولجار الذين أطلق عليهم اسم « التتار » ، قد ارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية ، فهو يكتب للسيطور التالية : « أشك أن السلطات تعلم بأنه لا يوجد عند التتارى الذى اعتنق المسيحية ، اهانة أكبر من تسميته باسم « التتارى » . وقد مضى ٣٥٠ عاما منذ اعتناق سكان قازان الأوائل الديانة المسيحية الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « كراشين » (أى النصرانيون) ، لكن السلطات المحلية ما زالت تسميهم بهذا الاسم البغيض بل تأمر بهذا . وكثيرا ما تعرض هؤلاء

Grigoryev V. V. : Rossiya i Aziya SP. b. 1876., s. 3, 5. (*)

Zahidov V.U. : O vesheniye istorii i kulturi narodov Uzbekistana. Tashkent., 1951., s. 39. (**)

« التتار » الذين اعتنقوا المسيحية ، للظلم بسبب هذه الظاهرة » (*).

وكل هذه الأمثلة تشبه صرخة اليائس .

ونجد تسمية « التتار » الخاطئة واستخدامها الباطل يقفان حجزاً نشرة أمام العرض العلمي والموضوعي لتاريخ كثير من الشعوب الناطقة بالتركية ، ويشكلان صعوبة في مجالات أخرى . وعلى سبيل المثال نأخذ بحث «ميخايلوف» تحت عنوان (اهتمام ليرمونتوف «باللغة التتارية») الذى نشر فى مجلة «منتخب التركيات» (**). حيث يضع المؤلف لفظ «التتارى» بين علامتى التنصيص ، وهذا ليس اعتباطاً منه ، فهو مضطر أن يشرح فى بحثه أن «اللغة التتارية» ليست لغة التتار - المغول ، لكنها تسمية عامة للغات شعوب القوقاز والأذربيجان والنوغاي والقوميق وآخرين . يقول الباحث : « هناك خلاف فى قضية اللغة التتارية منذ أيام بوشكين وليرمونتوف وحتى تولستوى حين قام بتأليف كتابه «كازاكى» . وقد كبر الخلاف بشئ آخر وهو أن اسم «التتار» لم يطلق فى ذلك الوقت على ممثل الشعوب الناطقة بالتركية فحسب بل أطلق على كل المسلمين » (***) .

والمعروف أن الطبيعة لا تطيق الفراغ . وإذا كان التتار ليسوا من سلالة البولجار مما حاول علماء الحكومة الروسية اثباته قبل قيام النورة البولشيفية ، فكان يترتب عليه أن تراث البولجار الحضارى ولغتهم وكتاباتهم وآثارهم ليست تراثاً للشعب التتارى . ومن هنا ظهر بعض «المفكرين» الذين استغلوا هذه النظرية الكاذبة عن أصول تبار اليوم وأعلنوا فجأة أن لغة البولجار هى لغة حية للشعب التشوفاشى الحديث ، وأن حضارة البولجار تراث له . لكن هذه النظرية المقصودة والكاذبة قد رفضت تماماً من قبل علماء الانثربولوجيا وعلماء اللغة والآثار . وقريباً ظهر فى السوق كتاب جديد حيث تم تجميع نتائج أبحاثهم . وصاحب هذا الكتاب عالم التاريخ والآثار المشهور «كراسنوف» الذى كرس سنين طويلة من حياته وعمله لدراسة تاريخ دولة البولجار فى حوض نهر الفولجا . وقد استنتج العالم معتمداً على تحليل الوثائق فى علم الآثار والاثنوغرافيا والانثربولوجيا ولغة الآثار المكتوبة التى وصلت إلينا من دولة البولجار فى حوض نهر الفولجا وامارة قازان ، أن «الآثار المكتوبة والحقائق الانثربولوجية أو الاثنوغرافية أو اللغوية لا تستطيع أن توفر

(*) Grigoryev D. G. : Zovite nas kreshensami. Izvestiya po Kazanskoy yeparhii. 1906. — 14/15., s. 450.

(**) Mihaylov M. S. : K voprosu o zanyatiyah M. Y. Lermontova taarskim yazkom. Turkologicheskii sbornik, M.L. 1951., s. 127-136

Ibid., s. 130.

(***)

لنا بالتفسير صورة واضحة عن تكوين الشعب التشوفاشي ، « ولا توجد هناك أدلة تستطيع أن تثبت توارث ثقافة البولجار مع التشوفاش - الأناطري قبل الغزو المغولي » (*) . والجدير بالذكر هنا أن « أناتري » وهم تشوفاش الجنوب ، كانوا جيرانا لبولجار الفولجا ويتصلون بهم باستمرار . أما « فريال » وهم تشوفاش الشمال الذين لم يتصلوا بالبولجار اتصالا مباشرا ، فلم يكن لديهم أى آثار تبين تأثير حضارة البولجار عليهم . ونجد هؤلاء الذين يدعون أن التشوفاش سلالة البولجار ، يستندون فى ادعاءاتهم على وجود بعض الألفاظ البولجارية فى لغة التشوفاش ، وكأن هذه الألفاظ لم تحفظ الا فى لغتهم ، أو كأن لغة التشوفاش منفردة بها . وهذه الادعاءات تخالف طبيعة الأمور . ونود هنا أن نشير أيضا الى النتائج التى توصل اليها العالم الاكاديمى « بارتولد » الذى يقول : « ان الباحث « أشمارين » يذكر بعض الألفاظ التى لا شك انها مأخوذة من الشعوب الاسلامية لكنها اكتسبت عند التشوفاش معانى أخرى . وكانت صلوات التشوفاش الوثنية تبدأ بلفظ « بسميلي » (من اللغة العربية « بسم الله ») ، أما الاله الذى يأمر الذئب فاطلق عليه اسم « بيخمبار » (من اللغة الفارسية « بيغمبر » أى الرسول) ، وكانت روح الميت عندهم تسمى « كيرامت » (من اللفظ العربى « كرامة ») . واذا كان التشوفاش بالفعل يستمدون أصولهم من البولجار الذين كانوا سكان المدن وورثوا هذه المصطلحات من أجدادهم ، لكان هذا دليلا على ظاهرة غريبة وغير موجودة فى العالم الاسلامى وهى العودة الى الوثنية والوحشية » (**).

عرض موجز لحياة التتار - البولجار

لقد سبق عرض نتائج بعض الأبحاث التى أشارت الى المستوى الزاقي لحضارة البولجار . ونود أن نضيف اليها بعض حقائق أخرى . لقد عرف البولجار صب حديد الزهر قبل الشعوب الأوروبية ، وكانوا يصنعونه من أحسن الأنواع (***) . وهناك « آثار كثيرة بقبت لتشهد لنا بتقنية راقية ومميزة للتعددين البولجاري » (****) . وتشير التقارير العلمية

(*) Krasnov U.A. : Problemi proishojdeniya ichuvashskogo naroda v svete arheologicheskikh dannih. — Sovetskaya arheologiya., 1974., 3., s. 117-118.

(**) Bartold V. V. : Sochineniya., t. 5., M. 1968., s. 520.

(***) Arzhehovskiy A. V. : Osnovi arheologii. M., 1955., s. 234.

(****) Smirnov A.P. : Voljskiye bulgari. M., 1951., s. 82.

الى وجود اهلحة فارسية هذه البولجار في عام ١٣٧٧ م (*) ونجند في القرن التاسع الميلادي أن المدارس والمكتبات لم تكن تعمل في المدن فحيث بل في كثير من القرى البولجارية (**) فمنذ منتصف القرن الرابع عشر حتى مشارف القرن السادس عشر الميلادي أي منذ فترة تدعى بين حكم « دميتري دونسكوي » (Dmitriy Donskoy) حتى « ايفان فاسيليفيتش » (Ivan Vasilyevich) كان سك العملة والمسكوكات للأمراء الروس يتم في المدن البولجارية (***) وهناك حقائق وأدلة أخرى تشهد لنا بالمستوى الراقى للحضارة البولجارية . أما عن أسلوب حياة التتار أي البولجار في الماضي البعيد فنستعين بشهادة ممثلى القومية الروسية .

وكما سبققت اليه اشارة من قبل كانت دور الطباعة الروسية الرسمية تقدم « التتار » في أسوأ صور ، ولم تضمن من أجل ذلك بالألوان ، فكانت ترسمهم في هيئة شخص « همجى » ، « عفن » و « قذر » . ومن ثم فقد أدت هذه الدعاية الى غرس التصور السيئ عن حضارة وأسلوب حياة التتار في وعى الجماهير الروس ، وخاصة لدى ذلك الجزء الذى لم يعرف التتار مباشرة . كما تركت هذه الدعاية آثارها أيضا في الأدب الشعبى الروسى . والمعروف أن أزمة العلاقات بين الشعوب تظهر عندما يبدأ « أبطال الحكومة » فى التباهى بأمجاد شعبهم واسلوب حياتهم واعتقاداتهم وملابسهم وما الى ذلك ، وتقديمها فى صور مثالية نموذجية . ومن هنا يبدأ هذا السلوك يتحكم فى آرائهم تجاه شعوب أخرى ، فاذا وجدوا فيها ما يخالف أذواقهم نسبوه الى مظاهر التخلف والهمجية ، وتناولوه بالسخرية والازدراء ، وهكذا تظهر الشوفينية والتفرقة العنصرية . أما الروس الذين عرفوا التتار مباشرة وعرفوا اسلوب حياتهم فتختلف نظرتهم الى حضارة وثقافة التتار اختلافا واضحا . وعلى سبيل المثال نجد « كوبلوف » (Y. Koblov) وهو أكثر المبشرين تعصبا ، الذى كان يكره التتار ، يضطر الى الاعتراف بأنه « لا بد من وجود مدرسة فى كل مسجد عند التتار » وأن « تعليمهم متطور للغاية ، فلا يوجد بينهم الأميون على وجه التقريب ، أما انشاء المدارس فيتم بالتبرعات العامة » (****) .

(*) Mavrodin V. : Vestnik Leningradskogo universiteta. 1946., — 3.

(**) Yakubovskiy A. U. : K voprosu ob istoricheskoy topografii Idila i Bolgar., 9-10 v. v., Sovetskaya arheologiya., t. 10., M., 1948., s. 270.

(***) Uspenskiy A. : Ocherki po istorii tatarskogo iskusstva., vestnik nauchnogo obshestva tatarovedeniya., 1924., — 7., s. 51.

(****) Koblov Y. D. : O tatarizatsii inovertsev Privolgskogo kraya., (*****) Kazan 1910., s. 3.

بـ وواضح أن هذا المبشر ليس راضيا عن تعليم التتار ، وهذا يفلقه كثيرا لأنه يرى أن المستوى التعليمي العالي عند التتار سيؤدي إلى « إفساد » الشعوب المجاورة مثل التشوفاش والمارى والودمورت والموردفين أى جذبها إلى الدين الإسلامى ، وذلك عن طريق معاملة التتار الطيبة لتلك الشعوب واحترامهم لعاداتها وتقاليدها » (*) . وليس صحيحا أن تقرير « قوبلوف » كان مجرد تبرير لفشل المبشرين فى فرض الديانة المسيحية على شعوب المنطقة ، لأن هناك تقارير كثيرة لعلماء الروس فى أزمنة مختلفة (مثل « جيورجى » (Georgiy) و « فوكس » (K. Fuks) و « زنامينسكى » (P. Znamenskiy) وآخرين تعبر عن تقديرهم للتعليم التتارى وتؤكد بذلك صحة تقرير « قوبلوف » .

ونجد « بينيجين » (M. Pinegin) وهو رئيس لجنة مؤقتة لشئون دار الطباع بمدينة قازان الذى عرف جيدا أسلوب حياة التتار وحضارتهم ، يقدم تقريرا سريا لمحافظ قازان بأن « الشعب التتارى قادر بلا شك على استيعاب أفكار جديدة تصل إليه عن طريق المساجد والمدارس ، وخاصة الصحافة التتارية التى تتناولها أيدي سواد الشعب ، حيث ثمانون فى المائة منه متعلمون » (**) . والجدير بالذكر أن تعليم التتار بلغتهم القومية لم يعترف به فى الإحصاءات الرسمية قبل قيام الثورة البولشفية ، لأن القراءة والكتابة باللغة الروسية كانتا مقياسا وحيدا لتحديد مستوى التتار التعليمى .

وكان الطبيب « سباسكى » (A. Spasskiy) الذى قام بدراسة تاريخية - اثنوغرافية للشعب التتارى ، يقول فى كتابه : « ان التتار يحبون استضافة الناس ، وكرم الضيافة من أحسن سماتهم » . أما « نسبة المتعلمين عندهم فأعلى من الروس » . و « يتميز التتار بمساكنهم النظيفة » . و « اعتاد التتار طلاء مدافئهم عدة مرات فى السنة ، وحتى فى بيوتهم القديمة تقوم نساؤهم بأوجباتهن المنزلية فى نظافة ونظام » . و « اذا أرادت التتارية حلب البقر لبست مريلة وغسلت الضروع بالماء الدافىء وغطت اللبن بفوطة نظيفة » (***) . وهذه السطور مأخوذة من بحث العالم الذى اتصل بالتتار اتصالا مباشرا ودرس حياتهم فى القرى التتارية . ويعترف المؤلف فى النهاية بأن أسلوب حياة التتار ومستواهم الحضارى « ينبغى أن يحتل مرتبة أولى بين كافة الغرباء » (****) .

Karimullin A. G. : U istokov tatarskoy knigi, Kazan 1971., (★)
s. 34-36.

Tsentralniy gos. arhiv TA. SSR., f 420., d 258., 15. (★★)

Spasskiy A. : Kazanskiye tatari., Kazan., 1961., s. 16. (★★★)

Ibid., s. 8. 28. (★★★★)

وهناك المؤرخ وعالم الاثنوغرافيا « فوكس » الذى عاش فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى وعمل أستاذا بجامعة قازان ، قد درس أيضا اسلوب حياة التتار وحضارتهم ، ويقول فى كتابه : « انهم يتميزون بالعلموح والكبرياء واحترامهم للضيف والمهارة فى النشاط التجارى وحبهم للفضة والنظافة . انهم متباهون ومغامرون ، يسالمون بعضهم ، يحبون العمل ويميلون الى الانطواء . فكل شعب سلبياته وايجابياته ، وكذلك التتار ، ذلك الشعب الذى استطاع بعد اخضاعه وتشثيته بين الروس أكثر من قرنين من الزمن ، أن يحافظ بصورة عجيبة على تقاليده وعاداته وكأنه عاش هذه السنين مستقلا » (*) .

وهذا هو وصف الروس للتتار الذين عرفوا الشعب التتارى واتصلوا به اتصالا مباشرا . ومثل هذه الملاحظات كثيرة فى الأدب ، لكنها تذوب بلا شك بين عدد هائل من الصفحات المختلفة التى تحمل فى أطوائها (أو طياتها) نقيضا لذلك .

النتائج التى توصل اليها الكاتب

ان هدف هذا البحث هو دراسة أصول الشعب التتارى الحديث . واذا تعرضنا لبعض القضايا الاثنوجينية فلم يكن ذلك الا فى ضوء دراستنا لتسمية « التتار » . وتاريخ أسماء الشعوب ليس تاريخا لأصول الشعوب ، وعلى الرغم من ذلك يلعب الأول دورا مهما فى تحديد الأخير . وقد تكون أسماء الشعوب خاطئة وقد تكون حقيقية ، فهى يمكن أن تتغير أو تتبدل . ويمكن أن تتغير معانى الأسماء نفسها ، لكن هذا لا يشترط تغيير هوية الشعب الذى يصبح حاملا لهذا الاسم . أما تغيير الاسم باسم آخر فيؤدى الى صعوبات وتعقيدات . وفى هذه الحالة قد تؤدى التسمية الخاطئة الى تشويه تاريخ الشعب وأصوله . ونجد المثل الكلاسيكى لهذه الظاهرة فى القضية التى تناولناها فى هذا الكتاب والتى كانت تدور حول تسمية « التتار » . وليست تسمية « التتار » بأصولها وجذورها الا لقبا تم فرضه غصبا على البولجار بسياسة النظام القيصرى العنصرى - الاستعمارى ومفكره . لقد كان تلفيق هذا الاسم ثم فرضه على البولجار يرمى الى القاء الغبار فى عيون الجماهير الشعبية لتبرير عملية النهب والاستبداد بالشعب البولجارى ، والى اشعال نار العداوة بين الشعوب كوسيلة لشغل أنظار الجماهير الكادحة عن القضايا الاجتماعية ومنع تأثير الآراء السياسية والاجتماعية الجديدة عليهم .

(*) Fuks K. : Kazanskiye tatari v statisticheskom i etnograficheskom otnosheniyah., Kazan., 1844., s. 21.

وقد فرضت هذه التسمية كلقب على كل شعوب شرق روسيا والقوقاز تقريبا ، وأطلقت « المخطوطات الروسية اسم « التتار » على البولفتسي وحتى البتشيبيج الفدائي والأتراك » (*) الذين عاشوا في روسيا الكيفية وسهوب روسيا الجنوبية في القرنين الحاسر والحادي عشر الميلادين .

أما الاسم الحقيقي لتتار منطقة نهر الفولجا وأورال فيولجار . ومهما حاولت التقاليد أو الأسانيد أو الأدلة اثبات اسم التتار بأنه اسم حقيقي للشعب ، فهذا يخالف الواقع التاريخي وهوية الشعب نفسه ، ويؤدي الى تسمية تاريخه الحقيقي وأصوله . ونجد هذه التسمية التي فرضت على البولجار كرسبة لالقاء الشار في عيون الجماهير الشعبية ، حتى استقرت وأصبحت بمنابة التسمية الحقيقية ، تسبب أو تسكل اهانة كبرى لمشاعر وفكر هذا الشعب حتى الآن . ويشير المؤرخ السوفيني المشهور « جوميلوف » الى أن « الأحكام المسبقة التي ظهرت في يوم كآراء ثم اتخذت فيما بعد كحقائق مطلقة ، من أخطاء فادحة تعمل على افساد التفكير العامي . أما تقديس الفدائي وتعالاهم فنسل الحركة النقدية ، ويستقر الرأي الكاذب الذي يؤدي الى تسمية الحقائق التاريخية » (*) . وهذا ما رأيناه في تاريخ تسمية التتار .

ونطلب من المؤرخين والباحثين في العلوم الاجتماعية ومؤلفي الكتب التعليمية في التاريخ وعلوم أخرى تحديدا أدق للمفاهيم والمصطلحات حول تاريخ الشعوب وأسمائها ، وخاصة في مسائل صعبة ومعقدة كأصول تسمية « التتار » وقضية الشعب التتاري الحديث ، ويجب عليهم أن يقدموا تفسيراً علمياً للأخطاء التاريخية المختلفة بسبب هذا المصطلح غير الدقيق ، وأن ينبهوا القارئ حتى لا يقع في هذه الأخطاء .

Entsiklopedicheskiy slovar Granta. t. 41., ch 7., stolb. 58. (٢٠)

Gumilev L.N. : Poiski vimishlennogo tsarstva. M., 1970., s. 279. (★★)

خلاصة القول

هذا البحث الذى استغرق سنين طويلة من حياة الكاتب وجهده . قد تمت كتابته وعرضه للنشر منذ عشر سنوات مضت . ومن خلال تلك الفترة تلقى الكاتب مئات الرسائل من القراء التى كانت تشير الى أن تسمية « التتار » تؤخذ بمفهوم الغزاة المغول فى كل أرجاء الانحاء السوفينى ، وحتى بعض التتار الذين نراهم اليوم ، ينسبون أنفسهم الى الامبراطورية الذهبية تحت تأثير الصحافة ووسائل الاعلام التى قدمت كثيرا من الموضوعات والبرامج حول ذلك الموضوع . وكانت كل رغبات القراء تتفق فى أن يتم نشر هذا البحث بأسرع وقت ممكن ليكون فى متناول الجميع .

وما أن نشر هذا البحث حتى ظهرت على صفحات الجرائد والمجلات مقالات تدور حول تاريخ أصول الشعب التتارى الحديث ومسائل أخرى متصلة بتسمية الشعب . وهذه المقالات المنشورة تتفق مع ملاحظات الكاتب ونتائج بحثه ، لكن هذه المقالات لا تعد بحثا علميا لهوية الشعب التتارى الحديث وتسميته ، وانما هى مجرد طرح لبعض المسائل التى توضح جانبا أو آخر من أصول التتار .

وقضية هوية الشعب التتارى الحديث وتسميته تحتوى على تاريخ معقد وطويل حيث تتراكم طبقة فوق طبقة الملاحظات القيمة مع الأخطاء والمبالغات والآراء التى ترمى الى أغراض معينة ، وكل هذا لا يتصل بالانجازات العلمية لسنين مضت أو سعة اطلاع المؤلفين فحسب ، بل يتصل أيضا بأرائهم السياسية والأيدولوجية . ونجد السياسيين والأيدولوجيين هم الذين أدخلوا تناقضات كثيرة فى قضية هوية الشعب التتارى الحديث وكل ما اتصل بتسميته . وهناك أسباب أخرى وقفت حجرة عثرة أمام حل القضية ، ومن أهمها سيطرة الحاكم المطلقة وسنوات الركود حين أصبحت كل كلمة جديدة فى مسألة القوميات تثير الحذر ورد الفعل السلبي . ودليل على هذا عرقلة نشر هذا الكتاب لعدة سنين .

ومع تقديم هذا البحث يرجو المؤلف من القارئ أن يأخذ فى الحسبان ما يلى : لقد حاول المؤلف أن يجمع فى بحنه كل الأعمال والأبحاث المتصلة بقضية هوية تتار اليوم وتسميتهم ، ويقوم بتحليلها وعرض التناقضات فيها . كما حاول المؤلف تقديم رأيه الخاص تجاه القضية أو تأييد هؤلاء

الذين يوافقهم فى الملاحظات والاستنتاجات • ومن أجل ذلك كله قام الكاتب بعرض نتائج الأبحاث التاريخية واللغوية الاتنوغرافية والأدبية ، اذ أنه يرى أن مثل هذه القضية المعقدة كهوية الشعب التتارى الحديث وتسميته يصعب حلها الا بهذا العرض النساى الموسع الذى يحتوى على تخصصات مختلفة •

ويرى الكاتب أنه من الواجب أن يقول انه لا يدعى حقيقة مطلقة ، وانما حاول عرض وحل جميع الجوانب المنصاة بالمسائل المطروحة ، لأن من حق كل مؤلف أن يفهم القضية التى يطرحها لاجنافتة ، ويفسرها بوجهة نظره الخاصة •

ان الكاتب شاكر سلفا لكل ملاحظات القراء وانتقاداتهم واقتراحاتهم ورغباتهم التى سوف يستفيد منها بلا شك فى أبحاثه القادمة • ويرجو الكاتب أن يفهمه القارىء فهما صحيحا • والكاتب لا يشرح أن يتم تغيير اسم التتار الى اسم البولجار ، وفى الوقت نفسه لا يريد أن يبقى اسم التتار بمفهومه السائد • وسين ينتهى القارىء من قراءة هذا الكتاب سيدرك بنفسه مدى الصعوبات والخسائر التى سيؤدى اليها تغيير اسم الشعب من ناحية ، وبقاء اسم « التتار » ملتصقا به من ناحية أخرى • ومن الصعب أن نضمن فى المستقبل أن اسم « التتار » سيبطل استخدامه بالمعنى المشوه والكريه الذى أشرنا اليه فى هذا البحث ، لأن اذا تذكرنا عبارة العالم أينشتاين يمكن أن نقول : قد يكون تفتيت الذرة أمرا سهلا وأهون من القضاء على الخرافات التى استقرت فى وعى الملايين من البشر تجاه التسمية المذكورة •

شرح وتعليق

١ - جنكيز خان (Chingis Han) :

حاكم الدولة المغولية وقائد جيوشها ، اسمه الحقيقي « تيموتشين » (Timuchin) ، فاز بألقاب « جنكيز خان » أى « ملك البحار » عقب توحيد القبائل المغولية تحت لوائه . (كلمة جنكيز خان مشتقة من اللغة التركية حيث « دنكينز » تعنى البحر و « خان » - المالك) .

انظر : Kichanov Y. I. : Jizn Timuchina dumavshego pokorit
mi., M., 1973.

٢ - باطى (Bati, Batu) :

باطرخان (١٢٠٨ - ١٢٥٥ م) حفيد جنكيز خان ، تم فوزه على تأسيس الامبراطورية الذهبية التى امتدت من نهر الارتيش (Irtish) حتى نهر الدانوب .

انظر Grekov B. D., Yakubovskiya, A. Y. : Zolotaya Orda i yeyo
padeniye., M-L., 1950.

Safargaliyev M. G. : Raspad Zolotiy Ordi., Saransk 1960.

٣ - البولجار (Bulgar) :

من أسرة الشعوب التركية ، قد ذكرتهم المصادر العربية باسم بلغار نهر ايدل (الفولجا حاليا) ، ويطلق عليهم الآن اسم التتار .

انظر : Smirnov A. P : Voljskiye bulgari., M., 1951.

٤ - الروايدل الايديولوجية :

اسم منسوب مرتبط بماضيه والحكم الذى تصدره الذخيرة عليه يرتبط باسمه . وعلى سبيل المثال اذا قام أعداء المغول بتأليف كتاب عنهم فن اللبى أن تحول هذه الكتب صفات سلبية سوف توجه ضدهم كسلاح أيديولوجى ، ومن هنا يصبح الاسم عاملا أيديولوجيا .

٥ - تاتارستان :

احدى جمهوريات روسيا الاتحادية تقع فى وسط نهر الفولجا بأوربا الشرقية ، عاصمتها مدينة قازان .

٦ - بولجاريا (Bulgaria) :

جمهورية تاتارستان حاليا .

٧ - التشوفاش (Chuvash) :

السكان الأصليون للجمهورية التشوفاشية فى روسيا الاتحادية . من حيث الشكل الانثروبولوجى يجمعون بين العنصر الأوروبى والمغولى ، يتحدثون اللغة التشوفاشية ، ديانتهم المسيحية . وفق رأى عدد كبير من العلماء لعب البولجار دورا كبيرا فى تكوين الشعب التشوفاشى .

انظر : Kahovskiy V. F. : Proishojdeniye chuvashskogo naroda., Cheboksari. 1965.

٨ - سوفار (Suvar) :

احدى مدن دولة البولجار فى حوض نهر الفولجا ، ذكرت فى المصادر التاريخية منذ القرن العاشر الميلادى وهى فترة ازدهارها . وكانت لهذه المدينة علاقات تجارية نشطة مع ايران وخوارزم وبيزنطة وروسيا وجورجيا ، وتعرضت للتدمير فى القرن الرابع عشر .

انظر : Smirnov A. P. : Voljskiye bulgari. M., 1951.

Smirnov A. P. : Suvar., M., 1941.

٩ - بولجار (بلغار فى المصادر العربية) :

عاصمة دولة البولجار ، تعود بداية تعميرها الى النصف الثانى من الألف الأول الميلادى . وأصبحت المدينة من أهم المراكز التجارية منذ القرن العاشر الميلادى ، وبدأ ذكرها يتكرر منذ ذلك الوقت فى المصادر الشرقية ، وتعرضت للتدمير الشامل أثناء الحملة الروسية فى القرن الخامس عشر .

انظر : Smirnov A.P. : Voljskiye bulgari., M., 1951.

Shpilevskiy S.M. : Drevniye goroda i drugiye bulgarskiye pamyatniki v Kazanskoy gubernii., Kazan., 1951.

١٠ - الاثنونيميا (Ethnonimiya) :

(من اللغة اليونانية حيث كلمة « ethnos » تعنى القبيلة أو الشعب و « onima » - الاسم أو التسمية) فرع من علم الأنوماستك (Onomastika) يدرس أسماء الشعوب والعشائر والقبائل وغيرها من المجموعات البشرية ، وتبحث فى تاريخ أسماء الشعوب واستخداماتها وانتشارها ووضعها فى أيامنا هذه . وتلعب نتائج الأبحاث فى علم الاثنونيميا دورا مهما فى حل بعض القضايا التاريخية التى تدور حول أصول الشعوب ولغاتها ، لأن دراسة أسماء الشعوب تتيح لنا فرصة تتبع تطور الاسم وتفسير جذوره . كما تستخدم نتائج بحوث الاثنونيميا فى الاثنوغرافيا والديموغرافيا والتاريخ وعلم اللغة والأنثروبولوجيا والآثار أى العلوم التى تبحث الشعوب والتجمعات البشرية من وجهات نظر مختلفة ، واتجاه هجرات الشعوب ، والتأثير والتأثر المتبادل من ناحية اللغة والثقافة . وتوفر لنا أسماء الشعوب ، كمصطلحات قديمة ، معلومات تاريخية ولغوية قيمة .

Etnografiya imyon., M., 1971.

انظر :

Popov A. I. : Nazvaniya narodov SSSR., L., 1973.

Trubachev O. N. : Ranniye Slavyanskiye etnonimi., « Voprasi yaziko-znaniya » — 6., 1973.

١١ - المديار ((Madyar) :

هذا الاسم يطلقه المجر على أنفسهم .

١٢ - الاوفار (Uvar) :

شعب كان يسكن مناطق أوروبا الشرقية فى القرون الوسطى . ولا يوجد الوفاق بين العلماء حتى الآن حول أصول ذلك الشعب ، اذ يرى فريق منهم أنهم من الجنس السلافى ، ويرى فريق آخر أنهم ينحدرون من الشعوب الأوغرو - فينية ، ويرى عدد كبير منهم أنهم من الشعوب التركية .

١٣ - الخازار (Hazar) :

القبائل التركية التى ظهرت على مسرح التاريخ فى أوروبا الشرقية فى القرن الرابع الميلادى ، واستطاعت تكوين دولة لهم فى القرن السابع الميلادى .

Artamonov M.N. : Istoriya hazar., L., 1962.

انظر :

١٤ - الميشيان (Mishai) :

شعب ينحدر من البولجار ، ويسكن حوض نهر الفولجا وجمهورية
باشكيريا بروسيا الاتحادية .

١٥ - الميسوثان :

أهل مدينة سوفار السابق ذكرها .

١٦ - روبروك (Rubrouck, Reebreck, Rubruquis) :

الرحالة الأوربي ، توفي في عام ١٢٩٣ م . تولى الاشراف على البعثة
الدبلوماسية التي أرسلها ملك فرنسا «لودفيك التاسع» الى بلاد النهرين .
وقام روبروك بزيارة بلاد فارس وبيزنطة وشبه جزيرة القرم وسهوب
نهر الدانوب وآسيا الوسطى ومنغوليا ، وترك لنا في تقاريره عن تلك
البلاد المادة التاريخية والجغرافية والاثنوغرافية لها .

انظر : Karpini. J. : Istoriya Mongolov., M., 1957.

١٧ - التتار :

(كلمة تركية بمعنى الحاكم) لقب الحاكم الذي استخدمه التتار
والمغول .

١٨ - الأورالتشودى (Uralchudi) :

اسم أطلقه الروس في المخطوطات القديمة على الاستون (شعب
جمهورية استونيا على بحر البلطيق) وعلى القبائل الأوغرو - فينية القريبة
لهم .

١٩ - الهون :

وباللاتينية « Hunnoi » وباللاتينية « Hunni, Chunni » قبائل
تركية موطنها آسيا الوسطى . بدأت هجرة هذه القبائل صوب الغرب في
القرن الرابع الميلادي التي اصطحبت معها حروباً كثيرة سجلت في الوثائق
التاريخية .

انظر : Thompson E. A. : A history of Atilla and the Huns.
Oxf., 1948.

Altheim F. : Geschichte de Hunnen., Bd 1-4, B., 1757-62.

Inostransev K. A : Hunni i Gunni., L., 1926.

٢٠ - الصرمات :

(باللاتينية — Sarmatae) التسمية العامة للقبائل الناطقة بالفارسية التي انتشرت بين نهري الفولجا والدانوب في القرن الثالث الميلادي .

انظر : Abramova M. P. : Sarmatskiye pogrebeniya Dona i
Ukrayini 2v do noe. — 1v do n.e. « Sovetskaya arheologiya » —
1., 1961.

Smirnov K. F. : Savromati. Ranneya istoriya.

Kultura sarmatov., M., 1964.

٢١ - الآلان (Alan) :

القبائل الإيرانية التي تمزت بين قبائل الصرمات . ويعد الأوسيتين في القوقاز سلالة تلك القبائل .

انظر : Vanev Z. N. : Srednevekovaya Alaniya., Staliniri.,
1959.

Kuznotsov V. A. : Alanskiye plemena Severnogo Kavkaza., M., 1962.

٢٢ - القبائل الأغوزية أو الغز :

اتحاد القبائل التركية التي هاجر جزء منها تحت ضغوط القرغيز إلى الصين حيث تغير اسمهم إلى الأويغور . وفي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ظهر على مسرح الأحداث التاريخية اتحاد القبائل الأغوزية في حوض بحر القزوين ومنطقة الأورال ، ونكونت مملكتهم في حوض نهر السيبجون التي تعرضت للتدمير من القبجاق .

ومنذ ذلك الحين هاجر جزء منهم إلى سهوب روسيا الجنوبية ، واتجه جزء آخر تحت قيادة « سلجوق » إلى الشرق الأوسط حيث أسسوا دولة لهم . وقد لعبت القبائل الأغوزية دورا أساسيا في تكوين بعض الشعوب مثل التركمان والأذربيجان والأتراك والقراقلباق وغيرها .

انظر : Hamilton J. R. : Les Ouighours a l'epoque des Cing dy-
nasties d'apres les documents Chinois., P. 1955.

Cahen C. T. : Pre-Ottoman Turkey., L., 1968.

Laszlo F. : Die Tokuz Oguz und die Kokturken., « Anallecta Orientalia » Bd 1., Bdpost. 1942.

Eartold V. V. : Guzz., t 5., M., 1968.

٢٣ - سومر :

شعب قديم عاش في الألف الثالث قبل الميلاد في منطقة جنوب دولة العراق حاليا ، وضمت بلاده الى الدولة الأكادية في عام ٢٤ قبل الميلاد .

انظر : Falkestein A. : Das Sumerische., Leiden., 1959 :

٢٤ - رموز كتابة « أ » و « ب » :

هذه الرموز متشابهة من حيث الشكل ، لكنها تختلف من حيث التركيب ، ومن ثم قسمها العلماء الى مجموعتين .

٢٥ - بولينيزيا (Polynesiya) :

جزر المحيط الهادى التى تشمل جزيرة تونجا (Tonga) وفينكس (Feniks) وتوالو (Tuvalu) وكوك (Cook) وساموا (Samoa) ولاين (Line) وجزر ماركيز (Marqucsas) ونيوزيلاندا (New Zealand) وتواماتو (Tuamotu) واوسترال (Austral) .

٢٦ - اللغة الألتائية :

لغة شعوب منطقة « ألتاي » بروسيا الاتحادية التى تضم الى نفسها اللغة القرغيزية والقبجاقية ، وهى من أسرة اللغات التركية .

انظر : Baskakov N. A : Altayskiy Yazik., M., 1958.

Vervizkiy V. I : Slovar altayskogo, aladagdkogo narechiy turkskogo-vazika., Kazan 1884.

٢٧ - الفينية - الأوغورية :

من الأسرة اللغوية الأورالية وتنقسم الى مجموعة لغات دول البلطيق وفنلندا والمجموعة السامية (المارى والموردفا والكومى والأودمورت) والمجموعة الأوغورية (المجر والمانسى والخانطى) . وتنتشر هذه المجموعات من شمالى شرق أوربا حتى جبال الأورال .

انظر : Collinder V : Survey of the Uralic languages : 2ed., Stockh., 1969.

Comparative grammar of the Uralic languages., Stockh., 1955.

Decsy G. : Einführung in die finnisch-ugrische sprach wissenschaft.,
Wiesbaden, 1965.

Haidu P. : Finnugor nepek es nyelvek., Bdpst. 1962.

Itkonen E. : Die laut und Formenstruktur der finnisch. — urgischen
Grund sprache., « Ural — Altaische Jahrbucher » 1962., Bd 34 s.
187-210.

٢٨ - ميسلا (Mela) :

(القرن الأول الميلادي) وحالة من دولة روما ، صاحب المؤلف
الشهير في الجغرافيا « De Chorographia » الذي يتكون من ثلاثة
أجزاء . وقد نشر في فرنسا وألمانيا وإيطاليا في فترة تمتد بين القرنين
السابع عشر والتاسع عشر الميلاديين .

Brokhaus, Efron : Ensiklopedicheskiy slovar : t. 9.,
San-Peterburg., 1896.

٢٩ - بليني (Gaius Plinius) :

عالم وهورخ وأديب من دولة روما ، لم تصل إلينا مؤلفاته التاريخية،
لكنها استخدمت في مؤلفات « تاسيتس » (Tacitus)

٣٠ - بانونيا (Panonia) :

احدى مقاطعات امبراطورية روما التى تقع شمالى دولة المجر حاليا .

٣١ - المارى (Mary) :

السكان الأصليون للجمهورية المارية بروسيا الاتحادية ، كان يطلق
عليهم من قبل اسم « تشيريهيس » ، يتحدثون اللغة المارية ، وهى احدى
لغات المجموعة الفينية — الأوغورية .

Kozlova K. L. : Etnografiya narodov Povoljya : M.,
1964.

Proishojdeniye Mariyskogo naroda., Ioshkar-Ola., 1967.

٣٢ - الأودمورت (Udmurt) :

السكان الأصليون للجمهورية الأودمورتية بروسيا الاتحادية ،
يتحدثون اللغة الأودمورتية ، ديانتهم المسيحية . وقد ورد ذكرهم فى

المخطوطات الروسية في القرنين الرابع عشر والسادس عشر تحت اسم « آر » و « أوتاك » ، وأطلق عليهم فيما بعد اسم « فوتاك » الذي استمر استخدامه حتى عام ١٩٣٢ م .

انظر : Buch M. : Die Wotjaken. Eine ethnologische Studie.,
Helsingfors., 1882.

٣٣ - الأراضي الاليمينكوفية :

منطقة قرب مدينة قازان ، اكتسبت هذه التسمية من اسم القرية التي اكتشفت فيها الآثار القديمة .

٣٤ - كامبا (Kama) :

فرع من نهر الفولجا ، طوله ١٨٠٥ كم .

٣٥ - اسباروخ (أو اسباريج) :

الحاكم والقائد البلغاري الذي هاجر مع جزء من القبائل الباغارية تحت ضغط الخازار الى نهر الدانوب في القرن السابع الميلادي ، حيث استطاع اخضاع القبائل المحلية ، وتكوين الدولة التي اعترفت بها بيزنطة في عام ٦٨١ م .

انظر : Nikitin SKA. : Obrazovaniye bolgarskogo naroda :
« Vestnik BGU » — 1., 1952.

٣٦ - الثورة :

الثورة البولشيفية التي قامت في روسيا في عام ١٩١٧ م .

٣٧ - البولوفتسي (Polovtsy) :

أي القبجاق (القبائل التركية التي ظهرت على مسرح التاريخ في العصور الوسطى) . وكان القبجاق على صلة بالروس والأوربيين الغربيين ، وهؤلاء جميعا لم يعرفوا كلمة « قبجاق » ، فكان الروس يسمونهم « بولوفتسي » ، أما الأوربيون فكانوا يطلقون عليهم اسم « قومان » (Comans) ..

انظر : Pletneva S. A. : Pechenegi toiki i pol vtry v yujno-usskih
stepyah., v sb. Materiali issledovaniya po arheologii SSER — 62,
M. 1958.

٣٨ - قالكـا (Kalka) :

فرع من نهر القالمينوس بجمهورية أوكرانيا ، يطلق عليه الآن اسم « قالتنيك » .

٣٩ - الموردفا (Mordva) :

السكان الأصليون للجمهورية الموردوفية في روسيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة الموردوفية وهي إحدى لغات المجموعة الفينية - الأوغورية ، ديانتهم المسيحية . قد ورد ذكرهم لأول مرة في وثائق القرن السادس الميلادي تحت اسم « موردينس » (Mordens) .

انظر : Ocherki istorii Mordovskoy ASSR, t. 1., Saransk, 1955.

الموردفـا

٤٠ - البورتاس (Burtas) :

اتحاد القبائل التي كانت تسكن ضفاف نهر الفولجا بين مدينتي « سيزران » (Sizran) و « فولجوجراد » (Vulgograd) حاليا . كانت تحت سيطرة الخازار منذ القرن السابع الميلادي ، ثم خضعت لاروس في نهاية القرن العاشر الميلادي .

انظر : Alihova A. E. : Kvoprosu o burtasah., « Sovetskaya etnografiya » — 1., 1949.

٤١ - فياتكـا (Vyaika) :

فرع من نهر قاما ، يمر بمدينة « كيروف » وجمهورية تاتارستان .

٤٢ - قازانكا (Kazanka) :

نهر تقع عليه مدينة قازان - عاصمة جمهورية تاتارستان بروسيا الاتحادية .

٤٣ - ألو - محمد :

أحد أمراء الامبراطورية الذهبية .

٤٤ - الباليوغرافيا :

علم يدرس تاريخ الخط وتطور رموزه وأشكاله ، كما يدرس الآثار المكتوبة بهدف قراءتها وتحديد مكانها وزمانها ومؤلفيها .

٤٤ - الفاريجا :

(من كلمة اسكاندينافية « vaeringjar ») وهم الجنود النورمانديون الذين كانوا في خدمة حكام بيزنطة . وفي الفترة التي تمتد بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديين كان عدد غير قليل منهم في خدمة الأمراء الروس ، واشتركوا في الحروب ضد الشعوب والبلاد المجاورة ، وذابوا فيما بعد بين الروس .

انظر : Grekov B. D. : O roli varyagov v istorii Rusi. « Novije vremena » — 30., 1947.

Shushavin V. D. : O sushnosti i formah sovremennogo normanizma. « Voprosi istorii » — 8., 1960.

٤٦ - النورمانديون :

(من كلمة اسكاندينافية « northman » — بمعنى انسان المناطق الشمالية) . هذا الاسم أطلق على بعض الشعوب الاسكاندينافية في فترة تمتد بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلاديين .

٤٧ - التادجيك (Tadjik) :

شعب جمهورية تاجيكستان الذي أطلق على نفسه اسم « todjik » تسكن أعداد كبيرة منهم شمال أفغانستان . يتحدثون اللغة التادجيكية وهي إحدى لغات الأسرة الإيرانية ، ديانتهم الاسلام ، معظمهم سنيون .

انظر : Gafurov B. G. : Tadjiki., M., 1972.

Bartold V. V. : Tadjiki. Istoricheskiy ocherk., t 2., 1963.

٤٨ - القرغيز (Kirgiz) :

شعب جمهورية قرغيزستان ، من المنظور الأنثروبولوجي ينتمون الى الشكل المغولي الذي يخص شعوب سيبيريا الجنوبية ، يتحدثون اللغة القرغيزية وهي من أسرة اللغات التركية ، مسلمون ، سنيو المذهب .

انظر : Abramov S. M. : Kirgizi i ich etnogenicheskoye i istoriko-kulturniye svyazi., L., 1971.

٤٩ - الأوزبك (Uzbek) :

شعب جمهورية أوزبكستان ، تسكن أعداد غير قليلة منهم شمال

أفغانستان والصين ، يتحدثون اللغة الأوزبكية وهي إحدى اللغات التركية ، مسلمون - سنيون .

انظر : Ivanov P. P. : Ocherki po istorii Sredney Azii M., 1958.
Narodi Sredney Azii i Kazahstana., t 1., M., 1962.

٥٠ - الكازاخ (Kaza^h) :

شعب جمهورية كازاخستان ، كان يطلق عليهم اسم « قرغيز » في الوثائق الرسمية والكتب الأدبية حتى عام ١٩٢٥ م ، وهذا خطأ . تسكن أعداد غير قليلة منهم في الصين ومنغوليا وأفغانستان ، يتحدثون اللغة الكازاخية وهي إحدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون - سنيون .

انظر : Narodi Sredney Azii i Kazahstana., t 2., M., 1963.

٥١ - الطوفين (Tuvин) :

السكان الأصليون للجمهورية الطوفينية بروسيا الاتحادية ، يطلقون على أنفسهم اسم « طيفالر » . أما الأسماء القديمة التي كانت تطلق عليهم فهي « سايون » ، و « سايوت » ، و « أوريانخاي » ، و « طاننو - طوفين » . يتحدثون اللغة الطوفينية (إحدى اللغات التركية) ، ديانتهم الشامانية واللامائية . من المنظور الأنثروبولوجي ينتمون إلى الشكل المغولي .

انظر : Narodi Sibiri., M - L., 1956.

٥٢ - الششور (Shor) :

شعب يسكن حوض نهر الطوم بشرق روسيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة الشورية (من أسرة اللغات التركية) ، ديانتهم الشامانية . من ناحية الأصول والحضارة قريبون من الحاقاس والتائين .

انظر : Potorov L. P. : Ocheriki storii., M-1936.

٥٣ - الحاقاس (Hakas) :

شعب ولاية حاقاسيا بشرق روسيا الاتحادية ، ويسكن جزء منهم الجمهورية الطوفينية ، يتحدثون اللغة الحاقاسية (من أسرة اللغات التركية) ، ديانتهم الشامانية .

انظر : Potorov L.P. : Proishojdeniye i formirovaniya hakasskey narodnosti, Abakan 1957.

٥٤ - الألتايسون :

شعب يسكن ولاية التاي بروسيا الاتحادية ، يتحدث اللغة الألتائية
(من أسرة اللغات التركية) .

انظر : Poturov L.P. : Ocherki istorii Altaytsev, M.-I., 1953.

٥٥ - (Kumuk, Kumik) :

شعب يسكن مناطق القوقاز الجبلية وجمهورية داغستان بروسيا
الإنشائية ، ينتمي لغتهم الى المجموعة القبطجاقية (من أسرة اللغات التركية) ،
من اقربون ، قريبون في صفاتهم الأنثروبولوجية والحضارية من شعوب
جمهورية داغستان .

انظر : Gadjiyeva S. S. : Kumiki. Istoriko-etnograficheskoye issle-
dovaniye. M., 1961.

Narodi Kavkaza., t. 1., M., 1960.

٥٦ - النوباي (Nupay) :

شعب يسكن الجمهوريات القوقازية بروسيا الاتحادية ، يتحدثون
اللغة النوبائية (من أسرة اللغات التركية) ، مسلمون - سنيون .

انظر : Narodi Kavkaza — 1., M., 1960.

٥٧ - البلكار (Balkar, Malkar) :

شعب تتركز كثافته السكانية في الجمهورية الكباردينية - البلكارية
(القوقازية) بروسيا الاتحادية ، لغتهم اللغة البلكارية (من أسرة اللغات
التركية) ، مسلمون - سنيون .

انظر : Alekseeva Y. P. : Karachayevssi i Balkartsi drevniy
narod kavkaza., Cherkessk., 1963.

Ocherki istorii Kavkazkogo naroda., Nalchik, 1961.

٥٨ - القراتشاي (Karachay) :

أو « قراتساياي » ، شعب قريب من البلكار ، يسكن الجمهورية
القراتشائية - التشركسية (القوقازية) بروسيا الاتحادية ، يتحدثون
اللغة القراتشائية وهي إحدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون - سنيون .

انظر :

Alekseeva Y. P. : Karachayevtsi i Balkartsi drevniy narod Kavkaza.,
Cherkesk 1963.

Ocherki istorii Karachayevo-Cherkessii., * 1., Stavropol. 1967.

٥٩ - درجاڤين (Deriavin) :

(١٧٤٣ - ١٨١٦ م) من أعظم شعراء روسيا القيصرية ، اشترك
في الانقلاب السياسى الذى أدى الى اعتلاء « كاترين الثانية » العرش .
وقد تدرج فى المناصب السياسية وله دور مهم فى الحياة الصحافية . فى
ذلك الوقت .

Blagoy D. D. : Derjavin., M., 1944.

انظر :

Serman I. Z. : Derjavin., L., 1967.

٦٠ - بليخانوف (Plehanov) :

(١٨٥٦ - ١٩١٨ م) من مؤسسى التيار الاشتراكى فى الأدب
الروسى ، له مؤلفات فى التاريخ والسياسة والفلسفة ، لعب دورا مهما فى
حياة الصحافة الروسية .

Chagin B. A., Kurbatova I. N. : Blehanov., M., 1973.

انظر :

٦١ - كانتيمير (Kantemir) :

(١٧٠٨ - ١٧٤٤ م) شاعر وناقد ، عمل فى السلك الدبلوماسى
وكان يجيد عدة لغات . يعد مؤسس التيار الواقعى فى الأدب الروسى
الحديث .

انظر :

Timofeev L. I. : Ocherki teorii i istorii russkogo stilha., M., 1958.

٦٢ - تيميريازيف (Timiryazev) :

عالم ، مؤسس الفيزيولوجيا النباتية فى روسيا .

Novikov S. A. : K. A. Timiryazev., M., 1948.

انظر :

٦٣ - رحمة-انينوف (Rahmaninov) :

(١٨٧٣ - ١٩٤٣ م) مؤلف موسيقى ، عازف بيانو وقائد أوركسترا
من أعظم الموسيقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين .

انظر : Bertensson S., Leyda J. : Sergey Rahmaninov. A lifetime :
in musik., NY., 1956.

٦٤ - كارامزين (Karamzin) :

(١٧٦٦ - ١٨٢٦ م) مؤرخ وأديب ، مؤسس التيار الرومانسي
في الأدب الروسي الحديث .

انظر : Istoriya russkoy literaturi 19 v.
Bibliographischeskiy ukazatel., M.-L., 1962.

٦٥ - جريبويدوف (Griboyedov) :

(١٧٩٥ - ١٨٢٩ م) أديب ودبلوماسي ، مؤسس التيار الواقعي في
الأدب المسرحي الروسي .

انظر : Istoriya russkoy literaturi 19v.
Bibliograficheskiy ukazatel., M.-L., 1962.
Petrov S. : Griboyedov., M., 1954.

٦٦ - سالتيكوف - شيدرين (Saltikov-Shedrin) :

(١٨٢٦ - ١٨٨٩ م) كاتب التيار الديموقراطي ، تحتل أعماله مكانة
خاصة في الأدب الروسي .

انظر : Makashin S. A. : Saltikov Shedrin. Bibliografiya : t. 1, 1.
M., 1951.
Turkov A. : Saltikov Shedrin., M. 1915.

٦٧ - بونين (Bunin) :

(١٨٧٠ - ١٩٥٣ م) من أبرز كتاب التيار الواقعي في الأدب الروسي،
هاجر الى فرنسا عقب قيام الثورة الاشتراكية ، نال جائزة « نوبل »
التقديرية في عام ١٩٣٣ م .

انظر : Alansyev V.N : I. A. Bunin. Ocherk tvorchestva : M.,
1966.

٦٨ - كوبرين (Kuprin) :

(١٨٧٠ - ١٩٣٨) كاتب يمثل المدرسة الواقعية النقدية في الأدب الروسي ، مثلت بعض أعماله في السينما .

انظر : Afanasyev V. : A. I. Kuprin.
Krotiko-biograficheskiy ocherk, M., 1960.

٦٩ - تشاداييف (Chadayev) :

(١٧٩٤ - ١٨٥٦ م) المفكر الروسي الذي نادى بالاتجاه الى الغرب، اذ رأى في ذلك وسيلة لنهضة روسيا .

انظر : Lebedev A. A. : Chadayev., M., 1965.

٧٠ - دوستويفسكى (Dostoyevskiy) :

(١٨٢١ - ١٨٨١ م) من أبرز كتاب المدرسة الواقعية في الأدب الروسي ، وقد نالت رواياته السيكولوجية شهرة عالمية .

انظر : Kaufman W. : Existentialism from Dostoyevskiy to
Sartre, Cleveland, N.Y., 1968.
Kirpotin V.Y. : F.M. Dostoyevskiy. Tvorcheskiy put., M. 1960.

٧١ - سيولكوفسكى (Tsiolkovskiy) :

(١٨٥٧ - ١٩٣٥ م) عالم الطيران والصواريخ .

انظر : Arlazorov M. S. : Tsiolkovskiy., Tul. 1977.

٧٢ - راديشيف (Radshhev) :

كاتب وفيلسوف ، له دور مهم في تطوير التيار الواقعي في الأدب الروسي .

انظر : Orlov V.N. : Radishev. Russkaya literatura. L., 1952.

٧٣ - داشكوف (Dashkova) :

(١٧٤٣ - ١٨١٠) كاتبة ، اشتركت في الانقلاب السياسي الذي أدى الى اعتلاء « كاترين الثانية » العرش .

انظر : Krasnobayev B. I. : Glava dvuch akademiy. « Voprosi
istorij » — 12, 1971.

٧٤ - ميلوكوف (Milukov) :

(١٨٩٥ - ١٩٤٣ م) كاتب ومؤرخ ، اشترك في النشاط السياسي ضد الثورة الاشتراكية ، هاجر الى لندن ثم باريس حيث نادى بالحرب ضد الحكومة السوفيتية .

انظر : Shapiro A.L. ; Russkaya istoriografiya v period imperia-
lizma., L., 1962.

٧٥ - بناييف (Panajev) :

(١٨١١ - ١٨٦٢ م) كاتب ، وصف في مؤلفاته الحياة الأدبية في روسيا في بداية القرن التاسع عشر .

انظر : Istoriya russkoy literaturi 19 v.
Bibliograficheskiy ukazatel., M-L., 1962.

٧٦ - كوجوشيف (Kugushev) :

(١٨٦٣ - ١٩٤٤) أحد قادة الثورة الاشتراكية في روسيا ، عقب نجاح الثورة تدرج في المناصب الحكومية العليا .

انظر : Sheynis Z. : Povest o knyaze Kugusheve., « Yunmost » —
6., 1967.

٧٧ - ينيكيف (Yenikeev) :

كاتب سوفيتي ولد في عام ١٩٠٩ م . تتميز مؤلفاته بدقة تصوير النفس البشرية وبراعة اللغة .

انظر : Mustafin R. : Karyera Zufara Sabitova ., « Drujba
narodov » — 10., 1963.

٧٨ - تنيشيف (Tenishev) :

(١٨٤٣ - ١٩٠٣) عالم الاثنوغرافيا والاجتماع ، مؤسس معهد « تنيشيف » في بطرسبورج في عام ١٨٩٦ م .

٧٩ - ينجاليتشيف (Yengalichev) :

(١٧٦٩ - ١٨٢٩) ، أديب روسي .

انظر : Brokhaus, Nefron ; Ens'klopedicheskiy slovar., t 11., San.
Peterburg, 1896.

٨٠ - شيشكوف (Shishkov) :

(١٧٥٤ - ١٨٤١) كاتب من أنصار السلفية في الأدب الروسي .

انظر : Stoyuniv V. Y. : A. S. Shishkov., Istoricheskiye sochineniya — 1., SPb 1880.

٨١ - شاخوفسكى (Shahovskiy) :

(١٧٠٥ - ١٧٧٧) كاتب روسى من الأسرة الملكية .

انظر : Radishev N. A : Jizn Shahovskogo., M. 1810.

٨٢ - ميشيرينوف (Mesherinov) :

قائد الجيش الروسى الذى أشرف على حصار دير « سلوفيتسك » .

انظر : Brokhaus, Nefron : Ensiklopedicheskiy slovar, t 19., San. Peterburg. 1896.

٨٣ - اوروسوف (Urusov) :

(١٨٤٣ - ١٩٠٠) أديب ومن أبرز رجال القانون .

انظر : Brokhaus, Nefron : Ensiklopedicheskiy slovar., San. Peterburg., 1896.

٨٤ - شيريميتيف (Sheremetyev) :

(١٦٥٢ - ١٧١٩) قائد الجيش الروسى والدبلوماسى .

انظر : Brokhaus, Nefron : Ensiklopedicheskiy slovar. S. Peterburg. 1896.

٨٥ - ستروجانوف (Stroganov) :

(١٧٩٤ - ١٨٨٢) قائد الجيش الروسى ورجل السياسة ، اشتهر

بأعماله الخيرية ومراعاة الحركة الفنية فى روسيا .

٨٦ - أراكتشيف (Arakcheev) :

(١٧٦٩ - ١٨٣٤) قائد الجيش الروسى ورجل السياسة ، كان

رمزا للرجعية والنظام العسكرى فى الدولة .

انظر : Istoriya SSSR s drevneyshich vremen do nashih dney. t 4., M., 1967.

٨٧ - دافيدوف (Davidov) :

(١٧٨٤ - ١٨٣٩) الكاتب الروسى •

Orlov V. M : D. Davidov., M., 1940. انظر :

٨٨ - جوكوفسكى (Iukovskiy) :

(١٧٨٣ - ١٨٥٢) شاعر من مؤسسى المدرسة الرومانسية فى الأدب

الروسى •

Grot Y. K. : Ocherk jizni i poezii Jukovskogo : Spb. San. : انظر
Puteburg., 1883.

٨٩ - شيرينسكى - شاهماتوف (Shirinskiy-Shahmatov) :

(١٧٩٠ - ١٨٥٣) رجل السياسة ووزير التعليم ، عضو أكاديمية

العلوم فى بطرسبورج •

٩٠ - اثنونيم :

كلمة مأخوذة من اللغة اليونانية حيث « اثنوث (ethnos) تعنى

القبيلة أو الشعب ، و « أونىما (Onyma) تعنى الاسم أو التسمية •

٩١ - النينتسى (Nentsi) :

شعب يسكن المناطق الشمالية بروسيا الاتحادية التى تمتد من جزيرة

« كولسك » حتى نهر اليانيسى (Yenisey) • ويتحدثون اللغة النينتسية

وهى إحدى لغات المجموعة الأورالية ، ديانتهم الشامانية ، جزء منهم اعتنق
المسيحية •

Chomich L. V. : Nentsi., M-L., 1966.

انظر :

Narodi Sibiri. M-L., 1956.

٩٢ - الاسكىمو (Eskimos) :

شعب يسكن أقصى المناطق الشمالية ، من المنظور الأنثروبولوجى ينتمى

الى الشكل المغولى •

Menovnikov G. A : Eskimos., Magadan., 1959.

انظر :

٩٣ - دويتش : Deutsch :

أى الألمان •

٩٤ - القره قلباق أو القراقلباق :

السكان الأصليون للجمهورية القراقلباقية ، يتحدثون اللغة القراقلباقية وهي إحدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون • من المنظور الأنثروبولوجي ينقسمون إلى الشكل المغولي والشكل الأوربي •

انظر : Tolstoy S.P. : K. voprosu o prishojdenii karakalpakshogo naroda. V. kn. Kratkiye soobsheniya instituta etnografii AN. SSSR., 2., M-L., 1947.

Jdanko T.A. : Ocherki istoricheskoy etnografii karakalpakov. M-L., 1950.

٩٥ - كاليمنتان (Kalimantan, Indonesian. Borneo) :

جزء من جزيرة « بورنيو » (الاندونيسيا) •

٩٦ - الكاريللي (Karelli) :

السكان الأصليون لشبه جزيرة « كاريليا » في شمال أوربا الشرقية، يتحدثون اللغة الكاريلية وهي إحدى لغات المجموعة الفينية - الأوغورية ، جزء منهم يعيش في فنلندا •

٩٧ - الباشكير (Bashkir) :

السكان الأصليون لجمهورية باشكيريا بروسيا الاتحادية الذين يطلقون على أنفسهم اسم « باشكورت » • يتحدثون اللغة الباشكيرية وهي إحدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون - سنيون •

انظر : Narodi Yevropeyskoy chasti SSSR. — 2., M., 1964.

Archeologiya i etnografiya Bashkirii., t 1-2., Ufa., 1962-64.

٩٨ - دشت - قبيجاق :

أي السهوب القبيجاقية ، وهذه التسمية نجدها مذكورة لأول مرة عند المؤلف الفارسي ناصر خسرو في القرن الحادي عشر الميلادي ، عندما أتت القبائل القبيجاقية من نهر الارتيش وأصبحت جيرانا لمملكة خوارزم • وقد استولى المغول على السهوب القبيجاقية في القرن الثالث عشر الميلادي •

انظر : Kudryashev K. V. : Polovetskaya step. M., 1948.

٩٩ - اللاق (Lak) :

من شعوب جمهورية داجستان بروسيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة
اللاقية وهي إحدى لغات المجموعة القوقازية ، مسلمون - سنيون .

Narodi Kavkaza., t 1., M. 1960.

انظر :

Narodi Dagestana., M. 1957.

١٠٠ - الليزجين (Lezgin) :

(يطلقون على أنفسهم اسم « ليزجيار ») شعب يسكن جنوب - شرقي
جمهورية داجستان وشمال جمهورية أذربيجان ، يتحدثون اللغة
الليزجينية وهي إحدى لغات المجموعة القوقازية ، مسلمون - سنيون .

Narodi Kavkaza., t 1., M., 1960.

انظر :

١٠١ - الكاباردين (Kabardin) :

(يطلقون على أنفسهم اسم « أديجي » (Adigey) شعب تسكن
غالبية العظمى في الجمهورية الكباردينية - البلكارية بروسيا الاتحادية ،
يتحدثون اللغة الكباردينية وهي إحدى لغات المجموعة القوقازية ،
مسلمون .

Narodi Kavkaza., t 1. M., 1960.

انظر :

Istoriya Kabardino-Balkarskoy ASSR., t 1-2., M., 1967.

١٠٢ - الخانطي (Hanti) :

شعب يسكن حوض نهري الابرش والأوب بشرق روسيا الاتحادية
يتحدثون اللغة الاوغورية ، قرييون من شعب « المانسي » .

Narodi Sibiri., M-L., 1965.

انظر :

Sokolova Z.P. : Hanti. « Voprosi istorii » 8., 1971.

١٠٣ - سامويدي :

ترجمة هذه الكلمة من اللغة الروسية تعني « آكلة أنفسهم » ومن
هنا نستطيع تصور كيف كانت هذه الشعوب المقهورة تعاني من اهانة
هذه التسميات التي فرضتها عليها سياسة قياصرة الروس الاستعمارية .

١٠٤ - باطبرشسا :

(على عبد الله على / ١٧١٠ - ١٧٦٢ م) قائد الثورة الباشكيرية
فى عام ١٧٥٥ م ، التى نادت الشعوب الاسلامية بالحرب ضد روسيا .

١٠٥ - الطنغوز (Tunguz) :

اسم كان يطلق على شعب الافينك فى العقود الأولى من القرن
العشرين .

١٠٦ - التركمان (Tungz) :

سكان جمهورية تركمنستان ، يعيش جزء منهم فى أفغانستان وإيران
وتركيا وفى الدول العربية ، يتحدثون اللغة التركمانية وهى احدى لغات
الأسرة التركية ، مسلمون - سنيون .

١٠٧ - التتارية الفصحى :

مستواها اللغوى صعب القراءة للقارئ التتارى اليوم ، لأن اللغة
التتارية تعرضت للتنقية من الألفاظ الدخيلة (الفارسية والعربية) فى
بداية القرن العشرين .

١٠٨ - سلوفين :

من شعوب دولة يوغسلافيا ، يتحدثون اللغة السلوفينية وهى احدى
لغات المجموعة السلافية .

اقراء فى هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى . رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
دايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوربس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راى	الأرض الغامضة
والتر آلن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	آلهة مصر
د . قدرى حفى وأخرون	الانسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكدوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س . بى . كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الانسان الفريد
بول ويست	الرواية الحديثة
د . عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنسور المعداوى	على محمود طه
بيل شول أدنبيت	القوة النفسية للأهرام
د . صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	ستندال

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضممارفيرنر هيزنبرج	
الفيزياء الذرية)	
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف . ع . أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجنحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للإنسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبسر
النحل والطب	د . لاعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء	
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن	
التشكيل	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	
١٨٨٥ - ١٩٨٥	شوكت الربيعى

د. محيى الدين أحمد حسين	المتنشئة الأسرية والأبناء الصغار
تأليف : ج. ج. داندلى أندرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الأدب القصصى
د. محمد أسعد عبد الرؤوف	الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟ طائفة من العلماء الأمريكين
د. السيد عليوة	حرب الفضاء
د. مصطفى عنانى	ادارة الصراعات النولية
صبرى الفضل	الميكروكمبيوتر
جابريل باير	مختارات من الأدب اليابانى
انطونى دى كوسبنى	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
وكينيث هينوج	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت مورين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف. س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	أجهزة تكييف الهواء
حوزيف داهموس	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى بىتر رداى
م. م. بورا	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
د. عاصم محمد رزق	التجربة اليونانية
رونالد د. سمبسون	مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
و نورمان د. أندرسون	العلم والطلاب والمدارس
د. أنور عبد الملك	الشارع المصرى والفكر
والث روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فرد. س. هيس	تبسيط الكيمياء
جون بوكهارت	العادات والتقاليد المصرية
الان كاسبيار	التنوع السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياحى
نريد هويل	البذور الكونية
شاندرا ويكراما ماسينيج	
حسين حلمى المهندس	دراما الشاشة (٢ ج)

الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د. محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدرومييتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينر
تربية أسماك الزينة	ليفيد الدرتون
الفاسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر. بورر
الفكر التاريخى عند الاغريق	وميالتون جولدينجر
قضايا وملامح الفن التشكيلى	ارنولد توينبى
التغذية فى البلدان النامية	د. صالح رضا
بداية بلا نهاية	م. ه. كنج وآخرون
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	جورج جاموف
حوار حول النظامين الرئيسيين	د. السيد طه أبو سديره
للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس ، ألان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيسلر
التوافق النفسى	توماس أ. هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميكائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان

اعداد محمد كمال اسماعيل.
 الفردوس الطوسي
 بيرتون بورتر
 جاك كرابس جونيور
 محمد فؤاد ، كوبريلي
 بول كونر
 اختيار واعداد صبرى الفضل.
 تونى بار
 نادين جورديمر وآخرون
 موريس بيربراير
 آدامز فيليب
 أحمد الشنواني
 جوناثان ريلي سميث
 ريتشارد شاخت
 ريجمونت هبئر
 الفريد . ج . بثلر
 اعداد . د . فيليب عطية
 ادوارد مري
 هربرت شيلر
 الحاج يونس المصرى
 ستيفن أوزمنت
 نفتالى لويس
 بيتر نيكوللز
 اعداد : موني براح وآخرون

التحليل والتوزيع الأوركستراالى
 الشاهنامة (٢ ج)
 الحياة الكريمة (٢ ج)
 كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠
 قيام الدولة العثمانية
 العثمانيون فى اوربا
 مختارات من الآداب الآسيوية
 التمثيل للسينما والتليفزيون
 سقوط المطر
 صناع الخلود
 دليل تنظيم المتاحف
 كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
 الحملة الصليبية الأولى
 رواد الفلسفة الحديثة
 جماليات فن الاخراج
 الكنائس القبطية (٢ ج)
 ترانيم زرادشت
 النقد السينمائى الأمريكى
 الاتصال والهيمنة الثقافية
 رحلات فارتيماس
 التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج
 مصر الرومانية
 السينما الخيالية
 السينما العربية من الخليج الى المحيط

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٢٩٦٥

ISBN — 977 — 01 — 3718 — 9

ترد كلمة التتار في كثير من الأعمال الأدبية والجمالية كما رآه
للبربرية والهمجية، وهي فكرة نبعت من الخلط بين التتار والمغول
الذين اجتاحتوا المشرق الإسلامي يوماً بجيوشهم في عصر جنكيز خان
وهولاءكو ودمروا مدينة بخدا وأحرقوا دور العلم فيها، ثم صنعوا
من كتبها جسراً لتمر عليه خيولهم التي نشرت الخراب والدمار في
كل مكان.

ويسعى هذا الكتاب إلى توضيح ذلك اللبس بالبحث في أصول
الشعب التتار، ذلك الشعب المسلم الذي عانى الكثير من الاضطهاد
في ظل روسيا القيصرية.

ولقد تعرض مؤلف الكتاب نفسه إلى الاضطهاد سنوات طويلة،
بل وطرد من وظيفته كاستاذ في جامعة قازان، ومع هذا فقد
استطاع بأبحاثه وعمله الدعوب أن يرفع مكانته وينال تقدير
الأوساط العلمية حتى أختير عضواً بالأكاديمية العلوم في جمهورية
تتارستان.



مطابع الهيئة العامة